الطبعة الأولى 1441 هـ - 2020 م
(ISBN) : 978-9947-79-706- 8
الإيداع القانوني: 2020/05

اسم العمل: حياة قيد الأفول
اسم المؤلف: عبد الله خديم
تصميم الغلاف: عبد النور شلالو
المدير العام / سميرة منصوري
إخراج: أحمد منصوري

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

Khedim Abdallah

حياة قيد الأفول

عبد الله خديم

المثقف
للنشر والتوزيع

الإهـــداء

*** إلى روح الدّكتور عشراتي الشيخ ..**

*** هديّة تسنيم بردة حفظها الله ورزقني القدرة على تجسيد نباتها**

الحسن وتحقيق مطالبها، اشتقت لك بنيّتي..

تقـــديم:

الأمير عبد القادر ابن محي الدين المعروف بـ عبد القادر الجزائري: هو كاتب وشاعر وفيلسوف وسياسي ومحارب، اشتهر بمناهضته للاحتلال الفرنسي للجزائر. ولد قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري يوم الثلاثاء 06 سبتمبر 1808 الموافق لـ 15 رجب 1223 هـ، رائد سياسي وعسكري مقاوم قاد (جيش أفريقيا) خمسة عشر عاما أثناء غزو فرنسا للجزائر هو أيضا مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورمز للمقاومة الجزائرية ضد الاستعمار والاضطهاد الفرنسي خاض معارك ضد الاحتلال الفرنسي للدفاع عن الوطن وبعدها نفي إلى دمشق وتوفي فيها يوم 26/05/1883.

– نقلا عن ويكيبيديا -

أنشد الأمير عبد القادر قصيدته الشهيرة عن البدو والحضر يقول فيها:

يا عاذراً لامرئٍ قد هام في الحضـــــر

وعــاذلًا لمحبّ البدو والقفـــــــــر

لا تذممنّ بيوتاً خفّ محملهـــــــا

وتمدحـنّ بيوت الطين والحجـــــر

لو كنت تعلم ما في البدو تعذرنـــــي

لكن جهلت وكم في الجهل من ضـــرر

أو كنتَ أصبحت في الصحراء مرتقيًا

بساط رملٍ به الحصباء كالـــــــدرر

أو جلتَ في روضةٍ قد راق منظرهـــا

بكل لونٍ جميل شيّق عطـــــــــر

تستنشقنّ نسيماً طاب منتشـــــقاً

يزيد في الروح لم يمرر على قـــــذَر

أو كنت في صبح ليل هاج هاتنـــــه

علوت في مرقبٍ أو جلت بالنظـــــر

رأيت في كلّ وجهٍ من بسائطهـــــا

سرباً من الوحش يرعى أطي الشجـــر

فيا لها وقفة لم تبق من حـــــزن

في قلب مضنى ولا كدّا لذي ضجـــر

نباكرُ الصيد أحيانا فنبغتـــــــه

فالصيد منّا مدى الأوقات في ذعـــر

فكم ظلمنا ظليما في نعامتـــــــه

وإن يكن طائراً في الجو كالصقـــــر

يوم الرحيل إذا شدّت هوادجنـــــا

شقائق عمّها مزنٌ من المطـــــــر

فيها العذارى وفيها قد جعلن كـوىً

مرقعاتٍ بأحداقٍ من الحـــــــور

تمشي الحداة لها من خلفها زجـلٌ

أشهى من الناي والسنطير والوتـــــر

ونحن فوقَ جياد الخيل نركضهـــا

شليلها زينة الأكفال والخصـــــــر

نطارد الوحش والغزلان نلحقهـــا

على البعاد وما تنجو من الضمـــــر

نروح للحيّ ليلا بعدما نزلـــــوا

منازلاً ما بها لطخٌ من الوضـــــــر

ترابها المسك بل أنقى وجاد بهـــا

صوب الغمائم بالآصال والبكـــــر

نلقى الخيام وقد صفّت بها فغدت

مثل السماء زهت بالأنجم الزهـــــر

قال الألى قد مضوا قولا يصدّقـــه

نقلٌ وعقلٌ وما للحق من غيـــــــر

الحسن يظهر في بيتين رونقـــه

بيتٌ من الشعرِ أو بيتٌ من الشعَـــر

أنعامنا إن أتت عند العشيّ تخـل

أصواتها كدويّ الرعد بالسحـــــــر

سفائن البرّ بل أنجى لراكبهـــــا

سفائن البحر كم فيها من الخطـــر

لنا المهارى وما للريم سرعتهـــــا

بها وبالخيل نلنا كل مفتخـــــــر

فخيلنا دائما للحرب مسرجـــةٌ

من استغاث بنا بشّره بالظفـــــر

نحن الملوك فلا تعدل بنا أحـــداً

وأيّ عيشٍ لمن قد بات في خفـــر

لا نحمل الضيم ممن جار نتركـــه

وأرضه وجيمع العزّ في السفـــر

وإن أساء علينا الجار عشرتـــــه

نبين عنه بلا ضرٍّ ولا ضـــــرَر

نبيت نار القرى تبدو لطارقتـــنا

فيها المداواة من جوع ومن خصـــر

عدوّنا ما له ملجـــــــا ولا وزرٌ

وعندنا عاديات السبق والظفـــر

شرابها من حليبٍ ما يخالطـــــه
ماء وليس حليب النوق كالبقـــــــــر
أموال أعدائنا في كلّ آونـــــــة
نقضي بقسمتها بالعدل والقـــــــــدر
ما في البداوة من عيب تذمّ بـــــه
إلّا المروءة والإحسان بالبـــــــــــدرِ
وصحّة الجسم فيها غير خافيـةٍ
والعيب والداء مقصورٌ على الحضَـــــر
من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى
فنحن أطول خلق اللّه في العمـــــــــر

مدخل:

لم يكن الأمير عبد القادر الجزائري لينظم قصيدة في موضوع ما لولا أنّه رأى من الأهمية بمكان تناول بعض سمات الموضوع في شكل يسهل حفظه ثمّ درسه، واختار الأمير ضمن مختاراته التطرّق إلى موضوع أشبه بالفقير اليتيم في المكتبات الجزائرية، ومن باب أولى العالمية، بحكم أن المتغيرات في هذا الموضوع ظلّت حبيسة سنيما لم توفّق إلى حدّ بعيد في رسم الصورة الأصل لأبطال قصيدة الأمير ومحاولتي هذه..

الكلام عن البدو في حقبة ليست بالبعيدة يقتضي الوقوف على حصر بعض اللحظات من حياتهم، مع الحرص على الاستطراد في وصف ظواهر البدو ومظاهره، و سيعيش كلّ قارئ بنفسية الراوي، ليس لأننا جميعا مدركون تفاصيل البدو، بل لأن الرواية حين تكون حقيقة تأخذ بالعقل من الشخصيات الوهمية التي يراد بها حقيقة، إلى شخصيات حقيقية يراد بها التذكير بالحقيقة، يكون مكمن سرّ إعجابك بفقرات هذا الكتاب بعد طيّ الصفحات الأخيرة منه.

الرجل البدوي: هو ذاك الطموح دون تحفيز، خشن الحضور الشّخصي، يصعب إقناعه بحكم براءة تصوّره من الغرر والتدليس، يمكنك كسب حياته إن كسبت ثقته ومحبّته، وغير ذلك كلها عداوة، ليس كعداوة أهل

الحضر القائمة على التصفية البدنية، كلا: بل عداوة تقتضي التصفية النفسية بمقاطعتك حتى في تبادل البسمات، لا يعرف هذا الرجل من الدنيا سوى قوته الحلال، يبحث عن شعور الفخر والتفاؤل قرب "خيمته"، يرى نتاج يديه وبطش رجليه على مقربة منه، يستشعر تربية أبنائه بشكل يوميّ، وفي العادة يبقى الشعور حيال ذلك ثابتا، يستدعي الشعور ذلكم أحيانا بعض الفخر أو الحزن بحكم ما يحاك للعائلة من أقدار، لكنّ الرضى بأداء كلّ فرد من أفراد عائلته مستقرّ عند درجة الممتاز..

الرجل البدوي صادق الوعد يفنى لأجل كلمته، قيل أن البشر نوعان: شخص يعيش لأجل كلمته، وشخص يعيش نتيجة كلمته، والكلمة يراد بها الوعد طبعا، البدوي هو أيضا صافي السريرة، فحين تسمع منه عبارات الحبّ أو الكره فالذي سمعت هو الأصدق ولا مجال للمجاملة، هو شخص لا يعرف بالتفصيل كيف يعبد ويتقرّب إلى ربّه، لكنّه منه أقرب بألف سنة ممّا هو عليه رجل الدّين ذاته، فالمضغة في البدو ليست مضغة الحضر تضعف وتحبّ وترجوا من متاع الدنيا حلّه ومحرّمه، الرجل موضوعنا طمس حكايات جولييت وقيس وعشيق التايتانيك، لكنّه قويّ الكاريزما مضبوط الحس والنفس، والنّفس لا يبوح بمكنوناته كل وقت وحين، فهو رسميّ الحضور لا يُرى في ناصيته ما يعكس أن الهوان

قد نزل بساحته، عطوف متعاطف حدّ السّخاء.. دعني أختصر لك **المدخل:** الرجل البدوي بشر في وقت اللابشرية، هو معزول عن ضوضاء التفاهات التي كبرنا معها وبها حتى إليها ..

ولو نطق هذا الرجل الآن في هذه الدقيقة التي قرأت فيها كلمة " الدقيقة " لقال قولا واحدا لا إضافة بعده: " أهلا وسهلا بك في عالم البادية يا بن أخي/ يا بنت أخي"..

كإفشاء لبعض الأسرار من قادم الصفحات: أهل البدو لا يكثرون طرح الأسئلة على ضيفهم حتى يطعموه، لذلك اكتفى الرجل بعبارات الترحيب وسكت، لكنّني سأرافقك نيابة عنه لأسرد لك تفاصيل التّفاصيل..

عبد الله

فصل في يوميات الريف

حين تستوي الشمس عند مشرقها يرفع "الستار" ويقال في لغتهم "يتشمّر"، هناك " ستاران ": الظهراني - الخلفي - وهو مدخل ومخرج الحريم، و" القبلي" واشتق الاسم من القبلة وهو عموما بوابة " الخيمة " .. هو نظام غالب لدى كل مرتادي ومعتادي الريف .

تقوم ربّة " العِشّة " لتملي أوامرها مثلما هو الحال كل صباح، طيّ فراش جهة النساء والتي تتكون من " الكانون " بمعنى الموقد، ورفوف من اللوح ترتقي فوق حجر كبير " فرساخ " توضع بين اللوحة والأخرى أغراض الطبخ بدءا من جهة الموقد ذهابا إلى "الستار الظهراني"، بجانب الأواني تصفف " الصناديق " ولكل فرد من العائلة صندوقه الشخصي ويحتوي كل صندوق على ثياب وأغراض ثمينة، فالنساء لهن ذهب وحلويات اشترينها من المدينة التي تدعى عندهم " القصر " وأغراض خاصة يُحرم عندهن أن يراها رجل من العائلة، وللرجال ثيابهم ودراهم قد تكبر قيمتها وقد تقل حسب الموسم وبدون شك هناك في كل صندوق رجالي سكين يدعى في المنطقة الجنوب غربية من الجزائر " بوطلعة " أو "بوسبعة " لاستعماله ضمن متطلّبات تمام الرجولة والتي تقتضي أن كلّ رجل له في جيبه ثلاث أشياء لا يحسب دونها من الرجال: بوطلعة، إبرة وخيط، وولاعة "زلاميت "..

عودة إلى صباحيات العشّة: تصفف البنات فراشهن والماء فوق الموقد يغلي ليتوضأن منه والرجال، ثم يكنسن بمكنسة "الحلفة " أو " الرتم " وهما عشبتان صحراويتان، ثم يبسط الفراش من جهات الموقد الثلاث.. الموقد يدعى بلغتهم "الملكمة ".. يحضر الأب إلى الملكمة ومعه الأولاد ويعمّ الانضباط، يسود الأجواء نقاشات جلّها حول برنامج العمل اليومي، الحالة الصحية للغنم، " العلف "، الماء الشروب للغنم وبلغتهم " الميراد " وغيرها..

أجمل ما في الصباح هو رائحة القهوة التي " تقطّر " في إبريق " برّاد " طويل أخضر بورد أحمر دموي وأبيض، أسود من الأسفل بفعل دخان الحطب، والرائحة الأخرى الشهية هي رائحة " المطلوع " ممزوجة برائحة الحطب.

ملاحظة وأواصل: كيس بلاستيكي بجانب ركبة الأم الأيسر معبّأ بالوقود المجاني.. يدعى في لغتهم " الوقيد " وهو عبارة عن (فضلات البقر) أكرمكم الله بعد مضي وقت عليها وهي في الأرض تيبس وتستخدم لتقوية لهيب النار.. وللتذكير ف " عروبي " من لهجتنا الجزائرية تعني ريفي أو بدوي..

تتناول العائلة وجبة الفطور المتشكلة من قهوة وسمن طبيعي من إنتاج الغنم، تمتلك الأم طريقة إنتاجه وتصفيته وتخزينه، ولها وحدها صلاحية لمسه وتوزيعه مالم تكن لها بنت كبيرة واعية مقربة منها، وينفر القوم كل نحو منصبه..

يصب أحدهم الماء في مكانه المخصص ويقال له بلسانهم " المجور" بإسكان الجيم وفتح الميم والواو، ويقوم آخر بالإمساك بالعنزات أو النعاج حديثي الولادة وكبح حركتها لتقوم الأم أو الأخوات باستخلاص الحليب من ثديها.. استخلاص الحليب يقال له بلسانهم " تحلب " بكسر التاء واللام وإسكان الحاء والباء، وثدي الشاة يسمى عندهم " الضرع " بإسكان الضاد..

بعد استخلاص الحليب يطلق أحد الأفراد سراح الجديان والخرفان الصّغار حديثي الولادة من بيتهم المخصص لهم " القيطون " وسأشرح تباعا لماذا يعزلونهم عن أمهاتهم وما الحكمة من عزلهم أصلا، يتجارى الجديان والخرفان نحو أمهاتهم بذلكم الصوت والنط والقفز، فيرضعون ما تركت لهم مستخلصة الحليب في ثديي أمهاتهم ..

بعد ذلك:

سرح الغنم في الصباح يقال له بلغتهم "ضحى، يضحي" وحين تسأل عن زيد أو عامر يجيبونك: " راح يضحي مع الغنم".. يسوق أحدهم قطيعا والآخر قطيعا يمشي أحدهم في مقدمة " السرعوفة " والآخر في الخلف ويسيرون رويدا رويدا معها..

السرعوفة بلسانهم تعني غنم واحدة، وتتشكّل الغنم الواحدة عموما من مائة وعشرون فأكثر من النعاج..

يسير القطيع بين " الراعي " وأخيه، ولا تسمع سوى دندنة وهضما وقضما، يخرج أحدهما " القصبة " من غمدها، والقصبة آلة موسيقية تصنع من القصب، منها أنواع كثيرة أشهرها " الخمايسي" و "السدايسي"، يمشي الجميع على مهل على أنغام " رايي " " قلبي يتفكر عربان رحالة " .. وغيرها من المفضلات لدى أهل الريف..

ويمضي آخر على متن " JAK " لسقي الماء، وهي شاحنة عريقة كان اكتسابها قديما ينمّ عن الثراء، يغدوا الأب للقيام بشؤون " القرس " وهي مجموعة أخرى من الماشية غالبا ما تكون ذكرانا دون أناث، لها شروط تربية خاصة، أكل خاص وظروف خاصة، بغرض تسمينها ورعايتها جيدا، أما القطيع الآخر الذي خرج للأكل من الطبيعة فهي غالبا "أم الخروف " وبينها بعض "الفحولة" وفي المقدمة دائما تجد قطيعا صغيرا هو سبب الأوجاع والمشاكل يدعى في لغتهم "الحرّاق" ويقصد به الماعز، فالماعز تزيد تعب الراعي وشقائه، فحين تقف الماعز توقف القطيع كاملا، أو حين تنزعج من حركة ما ويقال بلسانهم " تَدوى" تجري فيجري معها القطيع كاملا، مثل سياسة العرب تماما، وتشتغل النساء أشغالا منزلية كأن تخرجن إلى البقر لاستخلاص الحليب، أو غسل الملابس، وتتكفل أخرى بتحضير الأكل للغداء..

يبقى الأب ومعه ولد إن كان عدد أفراد العائلة كبيرا، لغايات متعددة، أولها في حال قدوم ضيف، وثانيها بعد غروب الشمس ترجع الغنم إلى الخيمة ويسمى رجوعها بلسانهم " تحوّش "بإسكان التاء والشين وفتح ما بينهما عند الظهيرة ويقال بلسانهم " تْرَوَّح " عند الغروب، فالرجل الماكث رفقة الأب ينتظر الغنم على مسافة بعيدة ليمنح أخويه فرصة القدوم من أجل الراحة والأكل والصلاة بعد يوم شاق ومتعب..

كاختصار: الغنم يعني قطيع النعاج مع بعض الماعز، والقرس هو مجموعة من الخرفان الذكور، يقال لهم بلسان أهل البدو "العلاليش"، سرح الغنم والقرس قبل الظهيرة يسمى بلسانهم "تضحّي" وسرحها في المساء يطلق عليه في اصطلاحهم " تعشّي"، تحوّش الغنم بمعنى تعود أدراجها عند الظهيرة، وتروّح بمعنى غدوّها في المساء.

في الليل.. ينام قطيع القرس عموما داخل زريبة، أما الغنم فتعدادها لا يمكن حصره في زريبة، بل على سعة من الأرض فقط، ويتناوب الإخوة على النوم وسط القطيع النائم حرصا على عدم افتراس الذئب للرؤوس المتناثرة.

يعزل الجديان والخرفان عن أمهاتهم لأسباب: الحفاظ على الحليب، والحفاظ على صحة الجدي من كثرة الحليب فهي ضارة ويقال "ضَرْبَه الحليب" بمعنى أسرف في الرضاعة، ثم حمايته من المناطحات والمطاردات

التي تحدث وسط القطيع، ومنطقيا حمايته لكونه لا يقوى على مقاومة الذئب ولا يقوى على مواجهة الصعاب، ووقايته من البرد والجليد والثلج وغيرها من الظّروف المناخية حتى يشتدّ ساعده..

لا يمكن بأيّ حال من الأحوال ويستحيل أن تدخل خيمة ما، عند الساعة التاسعة صباحا وتجد ركودا أو سباتا.. حركة دؤوب تشهدها الخيمة بكل أجنحتها، فالكانون قد نظّف وتمّ رمي " الرماد " وأوقدت نار جديدة للطبخ والتدفئة، وجهة الرجال صففت وحملت أغطيتها، الأغطية تصفف في الفاصل بين جهة النساء وجهة الرجال ويدعى "الحايل" وتسمى "القرايرّ" ويشمّر الستاران والجو نشط داخل المملكة..

تمارس الأم هوايتها النسيجية استغلالا لثروة الصوف فليس هناك ما يرمى أو يمكن الاستغناء عنه، الصناعة النسيجية من أبرز معالم الحياة البدوية، وتنصب الفتيات موقدا للأكل، الموقد هو عبارة عن حفرة صغيرة يوضع فيها الحطب، ثمّ يُؤتى بمثلث حديدي ذا أرجل، وسابقا كان يضع ثلاث حجرات أو علب الطماطم المصبرة ليوضع عليها القدر، القدر قد يكون عليه كسكسا وقد يكون "مردود " بالحليب، المردود هو الكسكس الغليظ ويقال له بلسان أهل المدن بركوكس أو العيش، أما العيش بلسان أهل البدو فهو الكسكس أو الطعام كما هو معروف، وهو نتيجة عملية تدعى بلسانهم " التبركيش " أو " الفتيل"؛ حيث تكون

مادّتي السّميد والفرينة "سميد رطب جدا" هما مكونات الكسكس، وبعد عملية التبليل والغربلة تأتي عملية "الحكّ" ثم ينشر الناتج على أكياس مخاطة ببعضها ليبس ثم يخزّن ويستعمل تدريجيا، وفي القدر حتما لحم "مشرّح" أو " القدّيد " وهو لحم محفوظ بطريقة تجعل من الثلاجة شيء عديم النفع، حيث يسقى اللحم بالملح وينشر داخل الخيمة كما تنشر الثياب المغسولة، ذوق خارق للعادة، في حين يلعب الصبيان في الخارج وقد يكلّفون ببعض الأنشطة من باب التربية والتدريب..

لا كلام داخل الخيمة إلا عن كيفية العيش دون كسل وخمول، فقد تتداول النسوة موضوع الزواج كنقاط نصح وتذكير من الأم لبناتها، لكن ليس بمستوى الاهتمام الذي تشهده المدن، فالبدوية في منأى عن المجاملات والخروج الكثير المتعدّد، وزواجها مضمون بضمانها لنقص تداول أخبارها وسمعتها داخل "الدوّار"، فالبنت المشهورة في الدوار بائسة ربما يستحيل زواجها والعكس بالعكس، والعكس صحيح..

يدخل الأب تارّة يطلب دواء الفرس وتارة "مقص" وتارة يجثو على ركبتيه يراقب جديا أو خروفا، وتارة يخرج ليداوي القطيع "دوا سبع مراض" للوقاية من الإسهاب والسعلة والأمراض المشابهة، ثم يعود عند الحادية عشر زوالا ليتناول الجميع وجبة " فطور العشرة " وهو غداء مقدّم تقدم فيه أطباق شهية مثل "الدوارة" ، "الحريرة " " المزامز " "سلاطة مطهية

"الجبن" "اللّبَا" وغيرها، وتحلب الأم صينية الشّاي وتجلس بالقرب من الزوج وتبقى على استعداد وأهبة في حال قدوم ضيف، ما تسمعه خلال شرب الشاي يمكن حصره في الآتي:

" روح زعك المعزات من عند العلف"؛ ومعناها حين يجد الماعز الحرية فإنه يغدو حيث يُخزّن العلف ويمزق الأكياس ويعثوا فسادا فيها ..

" شوف شوف البرهوش راه ينبح لا يجبى علينا حد" شوف معناها أنظر، والبرهوش كناية عن الكلب ويجبى بمعنى يطل أو يأتي ونباح الكلب في الريف يستدعي الخروج عاجلا من الخيمة لأن هناك حتما غريبا قادم..

تستشير الأم زوجها في طبق الغداء من باب الطّاعة فقط وعلى أساس خشيتها من عدم إعجابه بالوجبة بعد تقديمها له، ويأمرها "هزّي ما عينك خلينا نقمضوا" بمعنى احملي الأواني ووفري جو الهدوء..

من يقوم يوميا قبل شروق الشمس سيفهم لذة القيلولة داخل الخيمة، في الستار القبلي هناك ثلاث أعمدة ترفع الستار، يترك منها العمود " الركّالة" المحاذية لجهة النساء فقط قائما والبقية تنزل، ويترك ذاك العمود لتسهيل حركة النساء وحرسهن مؤقتا للقطيع ومحيط الخيمة..

الريح في البدو يقال له "الهبوب" وهو أنواع؛ البحري: وهو المتعة في فصل لصيف، والغربي: وعادة يكون بشارة مطر، والشهيلي: وهو النقمة والفاجعة الكبرى وغيرها ..

فصل في صبية الريف

أبناء الريف رجال في العقل والبدن، ولا عجب.. فالعرب قديما كانت ترضع الصبيان وتربيهم في الريف، هم محرومون حتما، مهمشون فعلا، ولكن الحرمان والتهميش هي أول ما يتعمده الأولياء، ففيه من التحدّي المعاكس، مما ينبت داخل الصبيان روح العزيمة وحب إثبات النفس وكذا التحرر من عقيدة " لا تستطيع.. لازلت صغيرا "، حين يبكي الصبي عن أبيه أثناء استعداده للسرح يأمر زوجته أن تلبسه خشنَ الثياب ويأخذه معه إلى الكهوف والمغامرات فيعشقها، وتنقش في حجرة فؤاده الغنم فيحبها، ويفهم طريقة السّرح فيسرّ بها، لا مقاهي ولا تبغ ولا كوكايين، الجوّ هنا هادئ وآمن، الأكل الطبيعي والبرنامج المكتظ بالنشاطات الرياضية التي تغنيك عن صالات التدريب، تصنع منك رجلا فذا طليق اللسان خجول الحدس، حتى مرضهم يكون دواؤه " الحنتيت، الفيجل، العرعار، الكمون، العسل، زبدة الماعز، عود غريس، الحلبة، القرطوفة، أزير الإبل.." كلّها أعشاب طبيعية، لا آسبيجيك ولا بانادول، ولا فرق بين البنت والولد في الطفولة، فيوم الخميس "سوق الغنم مثلا في ولاية البيّض" ينتظر الأطفال "الصوَّاقة" وهم من حملوا بعضا من " المال " إلى السوق، فحتما في جعبتهم لهم من الهدايا التي نراها نحن

تافهة لكنها حلم جليل لديهم وهي مثلا: حذاء، " خبز بولونجي " ياوورت، مشروبات غازية.. الخ

ألعاب الأطفال هناك في ذلك العالم ليست ڤراندايزر ولا باتمان في شكل دمية، بل هي مجموعة عيدان تربط بالخيوط للبنات، وسلك مجسم في شكل سيارة، كنا نصنع من علب الطماطم المصبرة مقصورة القيادة، ونغلف ما كنا نعتقد أنه عجلة القيادة بأسلاك الهاتف الملونة، ونرسم طريقا بأرجلنا ونحيطها بالحجارة لتظهر كأنها " طريق سريع "، يغضب من هذا الأمر أولياؤنا طبعا لأنه يؤدي إلى تمزيق الأحذية لكننا كنا رغم ذلك نفعل..

خلال الأعراس كان هناك "الطبڤ"، فيه المكسرات وعلب السجائر من نوع "نسيم"، تلك هي فرصتنا الوحيدة لاستكشاف لذّة التّدخين، وكان من الجنون ومن أسمى معاني الرجولة أن تغضب وتذهب إلى مكان تخزين العلف، لتخرج منه نصف سيجارة وتوقدها في "الشعبة وتتظاهر بأنك كنت تتوضأ.. جنون هو بنكهة الريف، لكنّ يوم اكتشاف رائحة التدخين في ثوبك كان أشبه بيوم البعث في رهبته، فالكلّ يسخط ويغضب، وستناول طعامك بشكل انفرادي لمدة لا تقل عن أسبوع، وستنام بعد المغرب كعقاب، لا يسمح لك بالكلام أصلا، فكان الرّدع نفسيّ بدرجة تجعلك تضحي بكل ما لك فيه متعة لأجل العودة إلى جوّ العائلة فقط ..

فصل الحياة الاجتماعية عامة

يبدو من معاملة الرجل وغلظته عموما أن نفسه ورجولته لا تسكن للمرأة ولا تهتمّ بها ولا لها، خاصّة عند أهل البدو؛ فهم ظاهريا أقسى من الحجر، وحتى بالنّظر إلى تركيبة المرأة البدوية سيكولوجيا ستصاب بالذّهول كيف لها أن تقبل كلّ هذا التسلّط والتّعنّت الرجولي؛ فهي على سبيل المثال لا الحصر تقوم بأعمال رجولية من الدّرجة الأولى، لا تدلي حتى برأيها في المحطّات الحاسمة، لا تردّ على وبائل الصراخ وقت الغضب والشّجار، حتى الحنّاء كنّ يستشرن قبل التزيّن بها لا سيما استعمالها لتلوين الشّعر قديما، والعكس كل العكس في علاقة الرجل بزوجه؛ فلا أحد يمكنه عتاب الرّجل البدوي بتلك الطريقة التي يتحملها من زوجته خلال خلوتهما، فهي تدلي بالرأي وتفرض آخرا، ترفض أوامر لم يكن بوسعها مناقشتها على مرأى ومسمع من الأبناء، مناقشات حادة وحميمية تارة أخرى هي حياة الزوجين الخفية.. تمشي عادة الزّوجة مع زوجها متأخّرة عنه بخطوات عديدة، فهمنا أنها تخلّف ذات يوم، لكنّها تخلّق، فقد لا يجد الرجل ضالته فيضطر لسؤال أحد المارة ليجد نفسه متحررا من عائق الغيرة كون زوجته في الخلف، علاوة على صفة الاتباع، فقد كانت فعلا تابعة له في كل تصرفاتها وحركاتها وسكونها فمن باب

أولى ستطيع أمره في التخلف خطوات وراءه، يستحيل أبدا أن تقنع فتاة اليوم أن الأمر كان ذات يوم متعارف عليه، بل كان هو الأصح، ومن سابع المستحيلات أن تتحمل أيّا كانت أن تعيش بنفسية وذهنية المرأة البدوية ولو لساعة واحدة، فالتذمّر وأقصد التطور قد أكل على العقائد وشرب، حتى العقيدة الشّرعية يمكن أن ترى بعض الاختلال في أخلاق المجتمع البدوي بحكم الغلظة ونقص التثقّف الحضري، لكن لا يصدقك عاقل أن ترى حجم المنكرات والخبائث على النحو الذي نعيش ونتعايش معه اليوم، فالمرأة كانت أشبه بالأمة فعلا، لكنها أعطت أخلاقا وتربية لا تستطيع المرأة المتحضرة حتى التفكير بالبدء في المحاولة، فحياة الأوّلين كانت تُبنى من الوهلة الأولى على الصدق والتفاهم، كانوا يعيبون على بعضهم البعض التهاون في أداء المسؤوليات، وويل للزوجة لو ضربت أو صرخت على ابنها قبالة والده وهو لا يعلم بما يحصل، فكليهما يلقيان التشديد والغلظة، احترام الأبناء والدهم وخشيته تستنبط من علاقة أمهم بأبيهم، فلن ترى احتجاجا ولا حتى صوتا مرتفعا فوق صوت الأب، بحكم تربية الأم أبناءها وبناتها، البنت حين يناديها الوالد ستضطر أحيانا لتغطية شعر رأسها بقماش لا يمت بصلة لمرافق الشعر، البنت لا تكثر الخروج والدخول حين يجلس والدها بالخيمة، وهي لا تجالسه أصلا المجالسة التي تزيد عن عشر دقائق متواصلة، فهي بمثابة إحراج لوالدها

واتّقاء لأي كلام أو تدخّل من شأنه زعزعة الثقة بينهما أو التقليل من احترام أحدهما للآخر.. وكي تستشعر حجم الحب الذي كان سائدا وسط أسرة بهذه المواصفات، ما عليك سوى زيارة هذه الأسرة عند فقدانها أحد أعضائها، ستشهد بنفسك الحب الصّافي الحقّ الذي لا ريب ولا مجاملة فيه على الإطلاق.. تتنازل ربة البيت عن حقوق تعتبر أساسية قصوى كي ترضي زوجها وترفع شأنه وسط القبيلة أو "الدوار" وأمام أبنائه وأقربائه، ويتنازل الرجل لزوجته عن قرارات وأفكار مصيرية لا يمكن تصورها، هي حياة التنازلات والبساطة، وهي روح التناغم الروحي لا التناغم الجسدي الخادع، وكي تحظى أو يحظى الزوج بفرصة الطلاق، كانت الفكرة تبدو غبية على وقتهم، فأنت ستكون مضطرا للجلوس في جمع من خيرة الرجال كانت تدعى على لسانهم "جماعة الجاه" لأزيد من ستّ أو سبع مرّات متتالية تكفي الواحدة من هذه الجلسات لتبرير روح أحدهم وسفك دمها، ما بالك لو كنت أنت موضوع الجميع وكل العيون نصبك! فإذا كان الحق لك، كنت الأسعد على الإطلاق، وأب الزوجة سيكون أبخس خلق الله يومها بحكم التزاماته التي كلفته بها الجماعة، والعكس بالعكس، والعكس صحيح.

كانت القبائل والعروش تتّخذ لها ممثلين عنها، غالبا هم كبار المجموعة سنّا وعلما خلال سنوات السبعينيات والثمانينات بعد وصول العلوم والثقافات للأدمغة، جماعة يمتثل لأوامرها الكل على اختلاف درجاتهم وقرابتهم دون استثناء ولا مبرّرات، فكانت النّزاعات كلّها تسوّى بالتقاء الممثّلين عن هذا وذاك، ويتفاوضون فيما بينهم تفاوض العقلاء بعيدا عن تشخيص المشكل والتّعاطف والتّحيّز، فكان هذا القرار يرفع إلى القضاء من أجل الدمغة لا أكثر، حتى القضاة كان لهم حظ العصفور في التدخل قانونيا في إصدار الأحكام، ففي الغالب تصله القضايا موسومة على لسانهم ب " تفاهمنا بيننا وقررنا الآتي : ... " فيصادق على قولهم وعريضة تفاهمهم دون تأجيل؛ فالمذنب والضّحية قد اتفقا على تسوية معينة واقتنعا بها، أما في حالة الصلح وهي الأشمل والغالب؛ فتتكرّر الولائم بين الطّرفين في شكل يعكس التّلاحم بعد الخصام، وهدايا يقدمها الطرفان، فهذا يهدي حصانا " داربدار " وذاك يقدم شاه وهذا طبعه يهدي "برنوس الوبر" وهكذا دواليك، والأعراش دوما في صراع دائم ومتواصل، لكن ما دامت جماعة التّمثيل سارية المفعول؛ فالخصام تلاحم في الأخير بحكم الأعراف، ومثال ذلك خصومة عرشي "ولاد عمران" و "القراريج" حول أحقيّة وأسبقيّة امتلاك أرض تدعى "الذّراع الأحمر" بالجنوب الغربي للجزائر، وهما متجاورين فيها اليوم نظرا لقوة التمثيل

من شيوخ الطرفين، ولن يحيد أحد التّابعين عن ما ورثه عن أجداده لا بالترخيص ولا بالمنع..

عقيدة القبيلة هذه لا تزال سارية المفعول في عديد مناطق الجزائر، ولو صارت اليوم بنسب بوح متفاوتة لكنها فوق كلّ اعتبار، والمؤسف في الأمر غياب جماعات التمثيل مما أدى بالمجتمعات إلى التناطح والاصطفاف بأروقة المحاكم، ولعل النمو الديمغرافي المفرط واختلاط الأنساب كانت أول أسباب اضمحلال عقيدة التمثيل والاحتكام لجماعة الجاه لتسوية النزاعات.. في ولاية البيّض، وهي ولاية جنوب غربية مثلا تنقسم بلدياتها الاثني وعشرين انقساما قبليا، وكتلميح بسيط فإن بلدية بريزينة موطن عرش "ولاد عيسى"، وبلدية "الغاسول "عرش" أولاد مومن، بلدية استيتن "عرش ولاد استيتن" بلدية الكاف الأحمر "عرش الكرارمة" الأبيض س الشيخ "عرش الزوا" بلدية الرقاصة والشفيق "عرش اولاد زياد" بلدية بوعلام" عرش ولاد سيدي اعمر مناصفة بالتقريب مع عرش "الرزيقات" وهكذا دواليك بباقي البلديات، هي ملامح تاريخية للتّأريخ لا أكثر بالنسبة لي، فالمجتمعات قد تداخلت ولم تبق تلك الفروقات وملامح التّمييز العلني بادية على السّمة الاجتماعية في كل البلديات، لكن تاريخيا: يتباهى الكلّ بتاريخ أجداده العميق ويجتمعون طبعا ذات ليال معلومة التّاريخ والشّهر في بلدياتهم التّاريخية، ليغدو كل منهم إلى حياته الخاصّة بعد ذلك.

فصل زواج البدو

كانت خطبة النّساء تسبق خطبة الرّجال بأسابيع، فتحضر أم العريس ومعها وفد من النسوة يحملن: قالب سكر خرطومي وشاي وحلويات وقارورة عطر، ويحضرن إلى خيمة العروس ويخترن من الأيام خميسا لغياب الرّجال بغية عدم مقابلتهم، فتسمع أم العروس ما جاءت به أم العريس من أحكام وشروط أملاها عليها زوجها، أمّا العريس فلا دخل له في الموضوع إطلاقا ولا يختار من تشاركه الحياة لأنّ والده ينوب عنه في ذلك؛ مطبقا تجاربه في الحياة وحسب معرفته ب "الخيام" ودرجة أصالتهم ومحافظتهم..

بعد رفع الجلسة الأولى يبلغ والد الفتاة بما سمعت زوجته؛ فيتحفظ عن أمور ويقبل أخرى ويشترط ثالثة، وإن قبِل ينتظر عودة أحد من العائلة المقابلة أو يبعث رسولا خارج عائلته ليبلغ أهل العريس بالقبول، يحضر نفر من الرجال حسب اتفاق العائلتين؛ فيخطبون بصفة رسمية، ويضعون النّقاط على حروفها، وكان في الغالب: القفة، الحطوط أو الشرط كما صار يطلق عليه، الدفوع: وهو كبشان وسميد وسكر وزيت ومواد غذائية لتأمين وجبتي عشاء وغداء، وجبة العشاء كانت للرجال من أجل إتمام العقد الشّرعي، الفاتحة، وغداء للنسوة يلبسن بعده

العروس خاتما ويضعن الحناء في يدها، بعد " الحنة " يتفق الملأ على أسبوع واحد، والأسبوع بلسانهم يُعرف ب "الصوق" لإقامة مراسيم حفل الزفاف..

بين المرحلة والأخرى تجهّز العروس وأهل بيتها ما يلزم من تجهيز، وكانت في الغالب 6 أفرشة من نوع " مضربة أو بساط في الاصطلاح الحديث، 6 وسادات، فراش أحمر كبير، 4 حصائر، حقيبتين جديدتين من المدينة، أغراض نسوة، وعطر FA وبعض المجوهرات حسب الطاقة والاستطاعة..

حفل الزفاف بهيج جدا، ومن كثرة بساطته كان الأروع على الإطلاق..

قبل حفل الزفاف إياك ثم إياك أن تعتقد أن زفاف الريف أسهل من زفاف " الصالات " والشوارع، فالعرس في خيمة أحكم تنظيما من عرس منقول على المباشر في قناة تلفزيون. لماذا ؟ والجواب يا رحمكم الله ببساطة هو: الثمنة.

الثمنة: تعرف الثَمْنَة اصطلاحا بأنها معرفة قدر الرجال ومعاملتهم بلباقة تليق بمكانتهم، ويقال "فلان مثمّن" بمعنى يجمع خصالا في شخصيته يمكنه بها مجابهة قادة العروش ويمكنه بها مجالسة الكبار في السنّ والتجربة وحتى المكانة..

واستفتحت هذا الجزء بالثمنة لأنني رأيت من الأهمية بمكان أن أسرد كواليس ما قبل العرس في "العشتين" لأن فيهما قول ..

-1 خيمة العريس: يجلس الأب ومعه البقية كلهم ماعدا الابن المتزوج؛ فعيب كبير وقلة ثمنة أن يقابل أباه أسبوعا قبل الزفاف، سأخبر متى يرفع هذا الحاجز لاحقا، يجتمعون على شاي، ويدرسون أسماء المدعوّين كلهم، تستشيره الأم ببعض الأسماء النّسوية فيقبل ويرفض ولا حرج في الأمر، المدهش حقا أن القائمة تقسم بعدها، فهناك أسماء لا يمكن البتة أن ينوب عندها الابن عن والده، ككبار العرش وأصدقاء ذوو موقع استراتيجي في العلاقات، والأنساب السّابقين وغيرها، والبقيّة من أحباب ومعارف وجيران، فيكفي أي رسول لتوجيه الدعوة..

بعدها يشرح الأب بالتّفصيل الدّقيق المملّ برنامج الحفل والخطط البديلة في حالة خروج الخطة الأصلية عن مسارها، ومثال ذلك عدد الرؤوس التي تذبح يوم الثلاثاء ومثلها يومي الأربعاء والخميس وكيف يمضي الجمعة، من يدخل وسط الضيوف ومن يكتفي بنقل الأطباق من الخيمة إلى حلقة الجماعة، من يقدم أواني الغسل ومن .. ومن.. كلّ بالتفصيل، من يذبح ومن يسلخ فهؤلاء إضافة إلى الدّعوة العامّة يستقبلون إشعارا يصنف ضمن العاجل والمهمّ للحضور بالمعدّات والحضور المبكر وغيرها من التّرتيبات، إضافة إلى مراسلة "شيخ العلفة" للتفاهم معه حول متطلبات "الخيالة" وعددهم وما إلى ذلك ..

عودة إلى العلفة..

العَلْفَة: تعرف العلفة اصطلاحا بأنها عدد من خمسة إلى ثلاثة عشر فارسا، لكلّ فارس جواده وسرجه وبندقية تسمى بلسانهم "مُكحلة "، ينتمون لمنطقة معينة أو عرش موصوف، ويقال علفة ولاد زياد وعلفة ولاد مومن أو علفة الرزيقات بمعنى تمييز العلفة عن غيرها بالنسب، ويندرج ضمن ذلك التّمييز باللّباس وخاصة البرنوس، والبرنوس هو قطعة القماش المفتوحة من جهة الصدر يعتمرها الفارس..

موضوع الفارس والخيل لوحده بحرلجّ، وسنخصص له سلسلة لوحده..

على كلّ؛ يتكلف الأب بعلف الخيل وفي حالات يتكلف بتوفير مادتي "البارود" و "الكابسول"، وإذا كان وزن الأب ثقيلا لدى الخيالة فإنهم لا يطالبونه بشيء..

يشرع المكلّفون بتبليغ المدعوين باكرا، فالدعوة من متطلبات تحقق الثمنة فيها يجب أن تكون سابقة للتاريخ المذكور بأسبوع على الأقل، فلن يحضر للزفاف من تصله الدعوة يوم الأربعاء مثلا أو الخميس صباحا، ويعتبر حضور العرس من عدمه وسيلة لتقوية أو قطع أواصر الصّداقة سواء من جهة الأب أو من جهة المدعوين، بمعنى لو نسي الأب أن يدعوَ فلانا، فإن فلانا ذاك سيغضب ويصل به التذمر حتى لقطع علاقته بالأب تحت وقع العبارة " ما نعرفش نريّح في الجماعة ولا وش خاصني "..

عموما: يصل أول وفد إلى بيت العريس يوم الاثنين، وهو فريق الصيانة والتجهيز؛ حيث يقوم هذا الفريق بتحضير الخيام وخياطتها ببعضها لتجنّب تقسيم جماعة الضيوف، وكذا اتخاذ كل الّتدابير بخصوص الغنم والماء وتجهيز الخيمة الأصلية وتحبيلها ..

تحبيل الخيمة: يقال حبّل الخيمة بمعنى غرس أوتادا بمحيط الخيمة وربط بها حبالا وشدّ بها الخيمة شداً، وهي خطة طوارئ تلجأ إليها ساكنة الريف في فصل العواصف والأمطار بالإضافة إلى أنهم كانوا " يْوَنُّو " ..

ما معنى " يونّي " ؟ بمعنى يجعل ساقية على حوافّ الخيمة لتسهيل حركة مياه الأمطار وعدم دخولها إلى الخيمة..

يقوم فوج التجهيز أيضا بتجهيز مكان الذبح و " الملعب " وغيرها..

آخر نشاطات فريق الصيانة قبل العرس هي ذبح شاة لاستقبال الأقارب المقربين يوم الثلاثاء والخيالة والذباحين و "رشق العلام" بمعنى رفع راية تتمثّل في قطعة قماش خضراء تسمى العلم بلسانهم، للأمانة العلمية للعلم هذا تفاسير واعتقادات صوفية، نظرا لفقري العلمي في المسألة سيحكي عنها غيري بحكم الكفاءة وواسع الاطلاع، يُربط عمود العلم الخشبي فوق الملكمة لإعلان بداية الزفاف..

الأقارب المقرّبون من بينهم أخصائيات الكسكس والحريرة وأخصائيات مرق اللحم ومعهن متربصات مهامهنّ تتلخص في الخضار وتحضير السلطة والباقي يوجه لأعمال النظافة والتغطية، بالإضافة إلى مهندسات في اختصاص الرفيس والملوي والرزيرزي وغيرها من التحليات التي تقدم صباحا وعصرا..

-2 خيمة العروس: يحضر لبيت العروس خالاتها وعماتها، وبعض الأعيان كالأعمام والأخوال أيضا، لتوديع عروسهم، وتبقى مهام بيت العروس هي تحضير وجبة العصرونية لاستقبال موكب الزفاف الذي يتولى مهمة نقلها لبيت زوجها، يتخلل ذلك سهرات عائلية مغلقة تكون نسوية خاصّة، يستعمل فيها البندير لإحياء موروث " القول " ..

القول: لغة من قال يقول قولا..

اصطلاحا: كلام يعبّر بطريقة تسكن الفؤاد عن ظرف مشترك لدى مجتمع بعينه، كلماته بسيطة ومحكمة ويحفظ بسهولة، ينسب إلى صاحبته الأولى وتتوارثه الأجيال جيلا بعد جيل، ولمن استعصى عليه الفهم يمكن تبسيط القول في تعريفه بأنّه شعر نسوي له قواعده وأحكامه وألحانه وإيقاعه الذي يميّزه عن الشّعر والغناء على حد سواء..

أغراض الزينة بالنّسبة للعروس كانت " الحنة " والكحل للعينين، ومضغ عود يدعى " المسواك "وليس السّواك، فقد شاهدت رأي العين كيف يلوّن الشّفتين والفمّ مما يعطي صورة جمال للمرأة قبل ظهور التّلوين الاصطناعي، وكان الوشم غالبا هو الزّينة الأبهى كرسم صور موجودات بين العينين وفي المعصم وحتى في موضع الخلخال.

يوم الثّلاثاء: كأنّ شيئا عظيما سيحدث.. في الأمر إنّ وأخواتها وبنات عمها، الأب على وجهه بشاشة غير مسبوقة، الأم بدأت تفقد صوتها، الأخوات في حالة بدنية لا يمكن وصفها، وبدأت " القازارات والكساكيس" تتطاير بين زوايا الخيمة.

القزار: هو الآنية من معدن "الحلية" التي يطهى فيها اللحم والخضار، والحلية معدن لا يصدأ على غرار الحديد، يحضر اليوم عدد محترم من المدعوين منهم المكلّفون بالذّبح وبني العم وبني الخال من جهة الابن، حركة العمل تغيّرت معطياتها وبرامجها، فالبقر مثلا لا يخرج معها أحد الأبناء، بل ابن عم ينوب عنه مؤقتا، والغنم يسرح بها العم الأصغر، والعلف والميراد والسقو صارت مهمة زوج البنت الكبرى، وهكذا يتمّ الاستفادة من جهود الأبناء داخل محيط الحفل..

الميراد: هو اصطحاب المواشي لمكان شربها.

السقو: هو عملية السّقي، مثل قصة ماء مدين، فقد كان البدو قديما يقطعون مسافات لجلب الماء في آنية مطاطية تسمى بلسانهم: الشمبر بفتح الشين والباء وتسكين الميم والرّاء، وكان المصدر غالبا آبارا حرّة أو "ثماد" أو عين نضّاخة، يُجلب الماء على ظهور الحمير أو فوق عربات الخيول.

وفي الساعة التّاسعة صباحا من يوم الثلاثاء، هناك "رخلتين" وحيدتين في زريبة القرس، يتوجه إليهما رجلين ليقودانهما إلى ساحة الشّهادة.

الرخلة: هي ما بين الخروفة والنعجة في السن والبنية، و تُختار عادة لمثل هذه المناسبات لنقص الشّحم فيها ووفرة لحمها علاوة على الذّوق المشرّف في أكلها..

تذبح الرخلتان، ويتوجّه الأبناء إلى الخيمة الرئيسة يحمل أحدهم " قصعة حلية " بها الأحشاء ويقال بلسانهم "الدواوير" والآخر يحمل الكبد وقلبي الشّاتين، وشحم سميك يسمى " الرداء" وثالث يحمل كيس علف به الرّؤوس والأرجل ليخبئهما لساعة استهلاكهما وسأعود إليها لاحقا..

يوضع اللّحم قبل تقطيعه على طاولات ويغطّى بقماش ويُترك مهلة من الزّمن حتى يجفّ ويقال بلسانهم "ينشف"، في انتظار ذلك توضع وجبة "فطور التسعة" أمام الحاضرين، وعادة ما يصل عددهم إلى ثلاث موائد.. الحساب بعدد الطاولات هو منهج البدويين، ففي كل طاولة يجلس

خمس رجال، وحين تسمع مثلا " ثمانين طابلة " فاضرب الثّمانين في العدد خمسة لتعرف المجموع..

يتناول الحضور فطورهم، ويكون عادة "حريرة " ولبن وتمر ودهان، إضافة إلى الرّفيس أو الرزيرزي، وهناك عرش يتميّز بالرفيس الخاص به، ويسمى عندهم ب "رفيس الترك" ويقال رفيس ولاد كذا ..هو رفيس يمزج فيه المردود أو العيش بالتمر والسّمن البدوي بطريقة أخّاذة..

الحريرة : هي طبق يشبه الحسّاء، تُمزج فيه الخضار واللّحم (يفضّل أهل البدو طهو الحريرة بذيل الشّاة بعد السّلخ، فالذّوق أجود من اللّحم به)، ويتمّ رحيهم ثم إضافة طحين الزرع يُطهى في ذاك الطحين، ثم يضاف إلي الحاصل أعشاب طبيعية تتلخص في "القرطوفة" "أزير الإبل"، "الكليلة" والكليلة من مشتقات الحليب بعد تيبيسه بطريقة بدائية.

يجلس أحد الأبناء جلوس الشّموخ عند أواني الشّاي.. ما هو جلوس الشموخ في طهو الشاي؟!! هو كالآتي:

* يمنع منعا باتا لدى أهل القمنة فتح الرّجلين على الصينية، بل الجلوس المحترم هو "التراع ".

* لا توجد أي حجة مهما كانت درجتها تسمح لطاهي الشاي أن يقوم من مقامه ويترك الصّينية.

* لا يأكل الطّاهي ويطهو الشّاي في آن واحد.

* ينصت الطاهي إلى الموضوع، فإن كان له ما يثري به النقاش فهو ممتاز ويزيد من هيبته، وإلا فالإنصات لطاهي الشاي مستحبّ.

* يسأل الطاهي كم من الحضور يشرب شايه دون سكر ولا يعذر بنسيانه ذلك.

فحين تلتفت إلى صينية الشاي، ستعرف مبدئيا شخصية الطاهي من خلال ترتيبه " الربايع " وهل على الصينية ماء وشاي، وهل الكؤوس مرتبة أم غير ذلك..

بعد شرب الكأسين الأول والثاني، يرفع الأب فاتحة المجلس، وتكون غالبا بالصلاة على النبي على صيغة " اللّهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حقّ قدره ومقداره العظيم، سبحان ربّك ربّ العزّة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين ".

طريقة حفظ الآيات ومثل هكذا أدعية وأقوال عن طريق تكرار الاستماع فقط نظرا لذكائهم وسرعة حفظهم.

ويقوم الجميع بتبادل أطراف الحديث، ويتذكرون غالبا " الصوق " ومغامراته، ثم يقسمهم الأب حسب حاجته، فوج منهم يتوجّه لبناء " الحجبة " وهي " ڤيطون " مستقل عن محيط الحفل، يعتبر من يوم بنائه غرفة نوم مستقلة، ففي النّهار فقط يقدم الابن وزوجته إلى الخيمة

الكبرى ومن هنا اشتقّ القول المأثور " الخيمة الكبيرة يخرجوا منها خيام"..

أجواء بناء الحجبة استثنائية جدا، فهي بالدّرجة الأولى مكان التقاء العروسين، ولن أدخل في تفاصيل لا تسمن ولا تغني موضوعي من جوعه، أتوجه بك حيث الفوج الذي يرافقه الأب، فهناك جرارين، يحرثان مساحة كبيرة من الأرض؛ فهم يحضرون ملعب الخيول، وقبل الجرار كانت تستعمل الحمير والبقر مثلما هو متعارف عليه طبعا، تسوّى الأرضية وترفع منها الحجارة ذات الحجم الكبير، وتبنى خيمة بطريقة عشوائية تستعمل كمظلة للمتفرجين من كبار الأعيان وتوضع تحتها طاولات الأكل وأواني الشاي والماء الشروب..

بعد الانتهاء من تسوية الأرضية يلتقي الفوجان مجددا في خيام الضيوف، الساعة الآن حوالي الثانية زوالا، تحضر الكبد لتقطيعها، ويقال بلسانهم "الملفوف" وهو مربعات متساوية من الكبد يتمّ تغليفها بشحم "الرداء"، وفوج ثان يقطع اللحم بالطريقة التقليدية، ضلوع وذكور لحم، والذكر من اللحم هو العظم الصحيح المكسو باللحم إضافة إلى لوحة الكتف "والشواكل.."

بعد تقطيع اللّحم تحضر وجبة الغداء، وتكون منطقيا سلاطة وطبق " الدوارة " و "ضلوع مصهدين" تختلف العائلات في طريقة الطهو لكنها تشترك في العادة..

بعد إتمام الوجبة يخلد الجميع لاستراحة يحدّها وقت العصر، وبعد العصر يحضر "الخيالة" كل حسب ظروفه، فمنهم من يحضر باكرا لأن له من ينوبه عن أشغال خيمته، ومنهم من يحضر بعد المغرب، ويصل أغلبهم بعد العشاء لتناول العشاء ..

يتوجه فوج الذباحين لذبح ست أو ثمان أو يزيد أو يقل حسب درجة الرفاه، تحضيرا لليلة الخميس، وليلة الخميس نعني الأربعاء ليلا.. فهي تدعى بلسانهم" ليلة الفال "..

السّاعة تشير الآن إلى الرابعة صباحا من يوم الأربعاء..

همس تحت الأغطية وضحك هستيريّ، هل نام القوم واستيقظوا أم أنهم لم يناموا بعد ؟

لا.. لا بل ناموا واستيقظوا وبدأ "الهبال .."

الحريرة على غير العادة باكرا ويشاركها في الأواني والطاولات " الدهان المربّب "، وهو سمن ممزوج بعصير التّمر الذي يسمى بلسانهم "الرُّب" برفع الراء، وهو عصير مركّز أسود اللّون يشبه في تركيبته العسل، حلو المذاق كانوا يستعملونه وحتى اليوم في علاج فقر الدم، لبن وشاي وقهوة تقدّم كحالة استثنائية لبعض الحضور، مواقد كثيرة واحد منها للماء وآخر لقازار اللحم وثالث موضوع فوقه كسكاس به تمر "نوع الحْمَيرة" تحضيرا لرفيس المساء ورابع تنبعث منه رائحة دوارة، وخامس قيل أنه

ممنوع على الجميع؛ فهو قدر به لحم وقلب شاة وأغراض أخرى خاصة ب "مولاي السلطان " بمعنى العريس، فهو منذ الاثنين انقطع عن أكل المعتاد ..

هناك نساء كبيرات في السن نسبيا قمن في أماكنهن وبقين على نفس الفراش يتبادلن أطراف الحديث، تقول الحاجة الأولى أنّها تعاني مع البقر خاصة بعد التحاق ابنها البشير بصفوف الخدمة الوطنية، وتقول الأخرى أن محمد "المخلوق" بمعنى المثير للشفقة يظل يجول ويصول حتى تفطرت قدماه، وتقول ثالثة "لو كان يقيب الشيباني نقعدوا بالحرّاق وليا خلاوه الجنون " بمعنى لو غاب الأب لبقيت ثروتهم تتلخص في الماعز، هذا إن ترك الأبناء ذلك والأبناء هم المقصودون بالجنون..

تدخل عليهن من جهة النساء امرأة في الأربعين لا تزال شامخة في البدن والوزن، فتأمرهن بصيغة الاستئذان أن يقمن للوضوء وترك المجال للفتيات لطي الفراش "حايدوا علينا من الطريق "..

في جهة الرّجال عموما الضّحك الهستيري سببه اتفاق الجميع على أن " قادة " وهي اختصار اجتماعي لاسمه "عبد القادر" مغفل ولا يفهم شيئا باستظهار أدلّة وبراهين مزيّفة وهو يردّ على التّهم الموجهة إليه..

بعد تناول الفطور الباكر تقوم جماعة الرجال لاستكمال آخر اللّمسات في التحضير، وفي جهة النساء تقام في هذه الأثناء حفلة مصغرة، تمسك امرأة البندير بيد وتبقي الأخرى شاغرة "باش ترد بيها" وتمسك الثانية البندير بكلتا يديها، ومهمتها " الڤول والردّ " وتضع الثالثة كلتا يديها على البَنْدير للتَّطْبيل، تضرب الثالثة البندير وتردّ معها الأولى باليد الشاغرة، ويستحضرن كلمات مثلما سبق وقلت، فتسمع منهن العجب الكثير على وزن " هاي لالة " و "انحشم علال بن سعيد" و "رجال الحوض" ولعلّ أشهر ما تسمع من قولهن: "وين قطاع القور يخرج لعجب يا امحمد راني فارحة ..خيمته ترفد ڤاع لبرولبحر.. يا أمحمد راني فارحة ..حج حجة وسبع حجات لنبي، يا أمحمد راني فارحه ..رافد لبخارة يجري بلحفا يا امحمد راني فارحة .. الخ" وينقلب الإيقاع في الأخير رأسا على عقب لتختم غالبا الأنشودة الشيطانية بقولهن " آوهنا طاح الويز ... الخ "..

البندير: هو على الأرجح مصطلح للدفّ، وهو قرص خشبي، يغلّف من فتحة واحدة فقط بجلد الشاة قبل أن تيبس، يوضع بداخله خيط رفيع به بعض " الزقيق" وهي كريات زجاجية جدّ صغيرة، لتحسين الغنّة عند ضرب الجلد باليد من الخارج.

بعد صلاة الظهر يطلب الأب ثيابه، فيخلع عنه لباس " التمرميد " ويتزين ب "عباية التيصور " ..

عباية التيصور: هي رمز الشموخ والعزة لدى الرجل الريفي، فلونها الأصفر الذهبي اللامع يجعل صورتك مميزة عن البقية بسنوات ضوئية، ومن تحتها قميص أبيض فوقه "جيلية" وسروال التيصور يتبع عباءته وحذاء أسود لا يظهر جماله إلا على أرجل أهل البدو، ويجلس الجميع في خيام الضيوف ينتظرون الوفود، وما تسمعه بكثرة مملة خلال هذا اليوم ويوم الخميس "هات نعاودو كاس"، بمعنى نشرب مجددا الشاي، لدرجة لو قمت بتحاليل طبية فسيستخرجون من عروقك الشاي بدل الدم.. والضحية الأكبر هو الطاهي هذه الأيام..

يلتحق الوفود جماعات، وتصل " طيوطا 86 " وكم هي عزيزة عليهم محملة بالرجال في الخلف وجدهم صاحب الشاحنة في " البراشما"، ويطلب الأب من الخيالة التحضير ل "مشوار الأربعاء" فتسرّج الخيول ويتم دكّ البارود وتحضيره، ولا تسمع صوتا أعلى من صوت " البارسيس bar 6 " يضرب أنبوب البندقية ليخرج منها بعد ساعات صوت صفير البارود..

ستشتعل الشرارة حتما، وتزغرد النساء على أهازيج " مكاااااااحل " ويبكي الصبية خوفا، و "يرشق" شيخ طاعن في السن، ويرقص الأب لأول مرة منذ حفل زفافه سنة 1958 على "مرجوع الغربي"، ستتدفق الدوارة والسلاطة والخيرات أمسية كاملة، وسيسيل الشاي أودية

بقدرها، سيبتهج القوم مساء كاملا حتى يخدعهم الليل بأذان المغرب.. ويغدو الجميع نحو الخيام للصلاة والسمر الصافي من مواقع التواصل، وسيجلس الشباب في " الطحطاحة " وهي الأرض المستوية يتغامزون ويتعاركون ويتضاحكون ويتنصحون، كل فوج منهم كالبلسم لا يخرج من نواياه سوى الأطهر والأنقى..

لعبة " الهفّ " حاضرة طبعا، وهي لعبة ذكاء تُلعب بلاعبين، حيث يرسم اللاعبان مربعا على التراب، يتمّ تقسيمه لمربّعات صغيرة، يسمى كلّ مربّع صغيرب: " الدار " ويتم تمييز اللاعب عن مقابله بنوعية الشّيء المستعمل في اللعب، فقد كان اللاعب مثلا يستعمل " مخلفات الجمال " ولاعب ثان يستعمل الحجر، كل حجرة أو " بعرة " تسمى " كلب "، والفائز في اللعبة هو الفائز بأكبر عدد من " كلاب " مقابله، وكانت المبارزة الجسدية من سمات لهوهم، ويقال بلسانهم " المعافرة "، ولعبة تشبه " الهفّ " هي الأخرى لعبة ذكاء تسمى " الدّامّة " وغيرها..

ويخرج منادٍ من الخيام ينادي: الصلاة يا جماعة، فيجتمع الكلّ لأداء الصلاة، في هذه الأثناء يأمر قائد فوج " الدَوَّارَة " والدوّارة هم فريق الشباب الذين يخدمون الضيوف، قائدة فوج المطبخ بطهي " الملفوف " وتبدأ مهندسة الكسكس في "التبراد"، وتأمر بدورها العون المكلّف بشؤون المرق والعلاقات مع العازبات بتحضير أواني " الروى " والسلطة

والبصل الذي يوضع فوق الكسكس، في الجهة المقابلة رئيس فوج المتربّصات والذي يكلّف عادة بتحضير أوان جديدة للشاي ومراقبة حجم تداول السكر وورق الشاي بتحضير أواني الغسيل ومراقبة الصابون و "الفوطات" وغيرها، حالة الطوارئ أعلنت وإمام الجماعة في ركعته الثالثة..

"ثقلي شوي، ثقلي شوي" هي كلمات الرجل للمكلفة بالمرق والعلاقات مع العازبات حتى يأمر الأب بقوله: "كشما طيبت أمك ؟ ها هاتلينا كاش ما ناكلوا وليا مكان حية جيبولنا الغطا بعدا نرقدوا" فيضحك القوم من هزله وكرمه، يكلّف رجل رزين بالعدّ، والعدّ ليس بالإصبع واحد اثنان ثلاثة .. ولا بالحاسبة، بل يلتزم أقصى شروط السرية في العدّ حتى لا يحرج الضيوف، وينطق مرة واحدة " 18 طابلة " ويشنّ الهجوم على قادة الأفواج لإخراج الأكل وترتيب تقديم الأكل كالآتي:

- الملفوف كإعلان لحضور الأكل.
- الطاولة وتشكيل مجموعة من خمسة أفراد.
- كيس به الملاعق والمناديل.
- السلطة وصحن به بصل مقطع لقطع مربعة وصغيرة جدا.
- " شبشاق" ماء، والشّبشاق هو أناء بلاستيكي بسعة لترواحد.
- قارورة مشروبات غازية، كانت زجاجية.

- المرق لسقي الكسكس وهو المراد به " الروى ".

- الكسكس.

- صحن به لحم يتم توزيعه من طرف واحد من الخمسة.

ثم تتوالى صيحات الأب "هات السّفوف هاااات" "جيب المرقة لا تجيفولنا راجل" "هات الضلح هات" والضلح هو الماء "زيدنا عظيم زيد" والعظيم بمعنى اللحم وغيرها من الهتافات..

يشرب الجميع شايا بعد العشاء، وتباشر فرقة القصبة بافتتاح السهرة الفنية بمطلع كلمات خليفي احمد غالبا: يا سمرة ما جفاك طولتي عنا " ثم تنقلب الآية " نقتل عمي وما نخبّرش ابا" وغيرها من "المراجيع" وبعد الرشوق تسمع "القمري طاح" والقاعة مكتظة بالرجال يرقصون حتى تعرق جباههم وجنوبهم وظهورهم.

اليوم هو يوم الخميس، اليوم على غير العادة لا سوق أسبوعي ولا بيع ولا شراء.. تقوم الجماعة كيوم أمس (على حليب الدجاج).. ما بين قوسين يطلق على البكور الباكر بلسان أهل البدو.. حريرة ودهان مربب وشاي وقهوة بعشبة الشّيح تفوح تملأ الأرجاء.. ثم يقوم نفر من الرجال للذبح.. اليوم مأدبة العشاء لن تكون مثل ليلة البارحة.. الليلة يقدّم أهل العريس " المشوي " للحضور..

تذبح ثلاثون شاة من الأجود دفعة واحدة.. نعم ثلاثون حين كان الرجال يفهمون السخاء والكرم.. هي جرأة منقطعة النظير أن يسيل أمامك دم رقاب ثلاثين من خيرة ماشيتك، ولو تشاهدون السرور الذي يعتلي خدّي الأب ستفهم عمق الصلاح في ذوات البدويين..

بعد الذبح تحمل الأحشاء إلى فوج المتربّصات لتنظيفها وتجهيزها لقائد فريق المرق، ستسمع بكثرة "زيد زيد القطايع" والمقصود بالقطايع أو المزامز هو الأحشاء..

اليوم لا تقطّع الذبائح مثلما شرحت المرة الماضية، بل تقسم كل شاة لقسمين اثنين بالطول فقط.. وتجهّز نار كبيرة اللهب حتى تصبح جمرا أو تجهّز " كوشات" بمعنى أفران لكل فرن منها طابقين.. تجهّز كلها وحين يقترب المغرب يشرع فوج خبير من الرجال في الشواء..

تفتح كتف النصف فتحة صغيرة بالسكين، ويدس فيها ملح حوالي ملعقتي أكل أو ثلاث، ويدهن باقي الهيكل بصلصة غالبا تكون بالفلفل الأسود وثوم وحشيش القصبر والكرافس كي تترك ذوقا، والغالبية لا تضع سوى الملح..

ولتقيم مأدبة شواء فأنت بحاجة إلى فهم ديناميكية الحدث، فالحريرة هي أول ما يقدّم و تليه أنواع باذخة من السلطات، ثم يوضع المشوي أمام الضيوف، وتليه " السفّة " وهي كسكس رقيق مقارنة بكسكس ليلة

البارحة يوضع في خلطته قرفة مطحونة وزبيب ومكسرات لدى بعض الأعراش، وبعد السفة تقدم الفواكه ليليها تمر وحليب..

قبل ذلك: يحضر أفراد من العائلة يقطنون في المدينة، وهم من الأهمية في المكان، لأن فيصل يملك " 505 " وحميد يملك " R21" والحسين يملك 504 والأعرج يملك R4، هم إذن موكب الزفاف الذي " يقابل " به الأبُ الأنسابَ..

بعد غداء الخميس، والذي يكون غالبا " شوربة رقيقة " باللحم وسلطة بحكم أن الضيوف كلهم " تسوڤو " يجهّز فريق الرجال كل ما من شأنه عكس صورة مضيافة، وتجهّز النساء فراش الضيفات من أهل العروس، في حين تتكفل والدة العريس وأخواته وعماته غالبا بتجهيز الحجبة وتصفيفها.. هي محاولة فاشلة لأن العرف يقتضي أن تصفف العروس حجبتها بنفسها حين تصل إليها، لكن أهل العريس يحزّ في أنفسهم أن تصل العروس وتجد الحجبة دون فراش..

تبخّر الحجبة بالأجود من البخور، وتعلق على ستار الڤيطون " صميرة العود " دفعا للشرور وجلبا للبركة كما كان سائدا .. صميرة العود هي حديدة توضع في رجل الحصان " يقال بلسانهم الحافر " من الأسفل لتجنيبه أوجاع الحجر والحصى وغيرها..

وقبل صلاة العصر تدبّ حركة دؤوب في محيط الخيمة، حيث وبعد تشاور بين الأب وإخوته، يتم الإعلان عن الفائزات في شرف الذهاب مع موكب العرس ويملي الأب الأسماء جهرا قرب خيمة النساء لبعث هيبته وعكس عدم قابلية قراره للطعن: " الحاجة فريحه والحاجة أم الخير وأمه وعماته وحنّاه " هي قائمة لا خوض فيها ولا جدال ..

يتجهّز الجميع و يسير الموكب قاصدا الزوجة المستقبلية.. لا كاميرات تصوير ولا سرعة فارطة ولا تجاوزات.. نافذات مغلقة، وقوم يجلسون باعتدال في مقاعدهم وكل ما يدور في حديثهم تجارب سابقة لأفراد من العائلة في الزواج أو أدعية الخير باليمن والبركة..

حين يقترب الموكب من خيمة العروس يشرع السائقون في تنبيه أهلها ب "الكلاكصون"، فيخرج إخوتها ويشمّرون ستارات خيامهم ويأمرون نساءهم بفسح المجال بقولهم " ديروا الطريق " ..

تتصافح العائلتان ويصلون العصر جماعة.. في هذه الأثناء تقترب " 504 مغطاة " من خيمة نساء لشحن "القش" وهو تجهيز العروس وأغراضها، وتحضر وجبة العصرونية وهي رفيس وملوي ومسمن وشاي وقهوة وربما دوارة إن كان أهل العروس أهل كرم .. وآخر ما تبقى من أركان الزواج العقد الشرعي يقيمه إمام بحضور الطرفين..

ليستأذن والد العريس قائلا: "أعطونا بنتنا خلونا نروحوا رانا بضيافنا" بمعنى أخرجوا لنا العروس فأمامنا ضيوف وارتباطات، يجيبه والدها " نتا ما جيتناش وكي جيتنا جيت مقصوب وقي وينتا وينتا تصد .. خرجوله ولاده " بمعنى لم تزرنا قط وحين زرتنا كنت مستعجلا، والقول هذا مزحة تطيب بها الخواطر وتكسّر بها حواجز الغرابة من القرابة لا غير..

تُحمَل الفتاة وتُزفّ إلى فارس الحلم الوحيد.. في جو مهيب تسمع صوت البندير " يَكْفَح " ورويدا رويدا نقترب من خيمة العرس الكبير. يبدأ " الكلاكصون" مجددا وتشتعل شرارة البسمات والغبطة وسط الجميع، الخيالة على خيلهم ينتظرون، والنّساء في الدّاخل تركن كل شيء ووقفن ينتظرن أول خطوة تسترسل فيها العروس داخل "العشة" ويتألف جو رهيب بين صوت " الغايطة" و "بندير النساء" وصوت الغنم وهي عند " المجاور" وهتافات الرجال ..

يصل الموكب أخيرا على وقع البارود وصهيل الخيول، عواصف رملية تهبّ نتيجة "القرطاس"، و "ا سيد الشيخ مرحبا بالضيف لي جانا " داخل الخيمة وخارجها تملأ الأرجاء..

تدخل العروس أولا إلى خيمة النساء ثم تغدو صوب قيطونها لتصفيفه بيدها " الشريفة " كأول لمسة في الحياة الزوجية، وفي الخارج كرنفال لا يمكن وصفه.. خيول وخيرات ورجال يملؤون الدنى، ضحك وقهقهات

وكلام حكماء و "زامر الشيطان" يثقب غشاء الأذن ب "باليلي با .. با قادة بالسماحي" والكل يرقص ويترنّح..

مع اقتراب المغرب تبدأ خيمة الرجال تمتلئ رويدا رويدا، وتبدأ إشعارات "هات لسيدك بريق يتوضّى" و "هات لسيدك وسادة" هي ما يتداول بكثرة..

ينادي الأب بعد صلاة المغرب قائد فوج القائمين على الضيوف "الدوّارة" ويسأله:

" هذاك ليشيرراه حي ولا ميّت" بمعنى هل الطفل حي أم ميت ؟ ويقصد العريس طبعا، ثم يصدر الأمر الملكي الذهبي: "ادّوه، ادّوه هناش منكم" والمقصود بالكلام زفّوه لزوجته يدخل عالم الزواج..

و تبدأ زغاريد ليلية تعلن تمام الحلال الطيّب المبارك، و يدوّي صوت البارود، تبكي والدتَا العروسين فرحا وسرورا، ويفتخر الجميع أنهم حضروا حفلا تمّ فيه قران شابين يضيفان إلى البدو رجالا ونساء لهم شهامة ونخوة العروبة القحّة..

بعد صلاة العشاء يحضر طبق العشاء مثلما شرحت أعلاه بنفس ترتيب الكلام، ثم يحضر "الغسيل" يبدأ شاب من اليمين وشاب من اليسار وآخر من منتصف الجماعة، ليغسل الحضور أيديهم.. أواني الغسيل هي "ليان" و "بريق" والصابون ومنشفة يعلقها الشاب على كتفه..

يحضر الشاي.. ويقوم رجل له صوت مسموع.. ويبدأ من يمين الجماعة يستلم مبلغا عن كل حاضر ويصدح بالاسم والمبلغ لبقية الحضور.. هي " النصيفة " وهي عادة سنّها الأوّلون لمساعدة بعضهم بعضا في تخفيف مصاريف الزّواج، ويعلن في الأخير عن المبلغ الإجمالي كشكر للجماعة، ثم تُرفع فاتحة المجلس بسورة الملك والصلاة على النبيّ على النحو الذي سلف ذكره، يخرج من الجماعة كبارها وعلماؤها لفسح المجال للشباب، ويبدأ فريق " الغايطة " والخيالة في إحياء ليلة ليس مثلها بين الليالي شبيه..

تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ..

بعد سهرة ملؤها " القايطة " والسمر، يقوم غالبية الحضور باكرا لتناول الفطور، الكثير منهم يتناول فطوره ورجليه تحت الغطاء نظرا لتنفس صبح البادية وما ينجرّ عنه من "سميقري"، السميقري هي مفردة يستدلّ بها أهل البدو على البرد الشديد بفعل الصقيع " الجليد"، يقوم المكلفون بالتنظيم لاستكمال آخر حلقات الفرح، فاليوم يذبحون شاتين إحداهما "بياض" والأخرى من الماعز للتعزيز والدعم؛ فاليوم يحضر من لم تسعفهم الظروف ليلة البارحة مخافة لومهم لاحقا، وإذا كانت " الضِيفات" معتبرة فلا حساب تحت وطء " الموس.."

الضِيفة: هي الشاة التي يهديها القريب لصاحب العرس، وعادة يكون الإخوة هم من يقدمون مثل هذه الهدايا أو أصدقاء مقربون..

اليوم يوم نِسوي بامتياز، فعند الساعة الحادية عشر ظهرا، تتحول خيمه الضيوف إلى مسرح للتبارز باستعمال سلاح الزينة و "المرقوم" من اللباس التقليدي، فقبل احتلال "الهندي" المشهد الثقافي، كانت النسوة ترتدين "اللباس" وكان وقتئذ لباس أبيض به "زقيق" في الصدرية وعلى الكتفين، مع طرز مغربي في الطرفين وفتحة ليست بالكبيرة عند الساقين، وكان للبدعية وقتها مكانة معتبرة..

المغزى من هذا اليوم كله هو حفل "الحزام"، وهو حفل يقام بعد الغداء يتم فيه عرض خمس أو ستّ " تصديرات "ومفردها "تصديرة"، والتصديرة هي خروج العروس بلباس مختلف عن الذي شوهدت به المرة الفارطة، مع نساء مرافقات غير اللاتي رافقنها قبل لحظات، ففي التصديرة الأولى مثلا تطلع العروس على النساء ب " التلمساني " ويرافقنها أخوات العريس، وفي التصديرة الثانية مثلا تطلع على جمهور النساء ب " القبايلي" ومعها أختها وأم العريس، وفي الثالثة مثلا ب " السطايفي" ومعها زوجات إخوة العريس وهكذا ..

اجتماع النّسوة خلال هذه المدة هو أعلى شأنا من برنامج "عرب آيدول " فالملاحظات لا تغادر صغيرة ولا كبيرة.. حتى البسمة لها سلّم تقييم "مالها عاقدة حواجبها ؟!! "، "شوف كي جاية زرقة كي الضب شوف" "قاع ومهيش زينة لهيه لهيه ، طفيلة هاك وهاك وخلاص " وغيرها..

توزّع على لجنه التحكيم- وأقصد الحاضرات - أكياس بها بعض الحلويات، وشاي وقهوة، ثم تحضر "الدشيشة المفلفلة" وفيها ما فيها من الكلام، فهي أكلة تقليدية، يستخدم فيها مستخلص القمح والشعير و"دهان العرب"، وهي وجبة ثقيلة طبعا.

اشتق الحزام من " الحِزام " الذي يوضع على خصر العروس الذي ترقص به في آخر تصديرة لها، يضع هذا الحزام غالبا أخ العريس الأصغر، كاستلام معنوي لشارة الدور "الدالة" بعد سنين قادمة، حيث يستدعى الأخ في آخر تصديرة ويعطى الحزام لربطه على خصر العروس ويشاركها في الرقص بضع دقائق ويحصل بعدها على مبلغ مالي حسب سخاء العروس وأمها..

بعد الحزام يتشتّت القوم كأن الطاعون حلّ بهم.. ويبقى الخُمُس منهم على الأكثر لإعادة أغراض العرس لأهلها، والعشاء الليلة سيكون شوربة وقطايع و "البوزلوف" للحضور ..

بعد ثلاثة أيام .. تودّع أم العروس وترحل إلى خيمتها، ولا يكون ذلك إلا بشاة حية رفقة بعض الخضر والقماش والعطر، كعربون محبة وتعويضا لها عن الأضرار النفسية جرّاء نقص أفراد عائلتها..

بعد شهر من الزفاف تقريبا: تزيد المدة وتنقص حسب كل عائلة، يسير الأعيان إلى بيت العروسة آخذين معهم بعضا من الأكل وشاة وخضار، تعرف هذه الالتفاتة عندهم بـ" المكبّ" بإسكان الميم وفتح ما بعدها، حيث تقوم البنت المتزوجة حديثا بمجابهة أباها لأول مرة، ويتعرّف زوجها على نسيبه عن قرب، هي لا شكّ فترة حاسمة في مسار علاقة العائلتين، وهي لحظات رعب وضغط لا مثيل لها عند السابقين ومن تبعهم من الشباب، فهي ساعة إحراج وضغط لا شبه ولا شبيه، وبعد غداء يعدّه أهل البنت يحضر الشاي طبعا ويتداول الجميع أطراف الحديث..

الحديث في جهة النساء طريف نوعا ما، فالبنت تتكلم بخرافات تثير الشكّ، فهي تطلب مثلا طينا من واد محاذ، أو تريد أن تمسك "جديا" وتنظر في عينيه، أو تريد "ترفاس" في فصل الخريف، وهي طلبات كلها تبشر أنها دخلت مسار الحمل ..

يعود أهل العريس دون العروسة إلى بيتهم، فهي ستأخذ عطلة قصيرة عند أمها، تدوم العطلة كحدّ أقصى نصف شهر من الأيام، تسترجع فيها بعض الذكريات وتستريح من بعض التكاليف..

يعود الزوج ذات مساء ليصطحبها إلى بيتها، حيث حياتها الجديدة التي بدأتها قبل شهرين من الزمن ..

فصل الحمل والولادة

المدهش في الموضوع أن النساء على عهد الزمن الجميل كنّ يمارسن وظائفهن دون كلل ولا ملل ولا مخاوف من سقوط الجنين، لا تحاليل ولا اطلاع مسبّق على جنس الجنين.. السقاية والحَلْب وحتى تفريغ العَلَف في مواضعه وجلب الحطب وكنس الخيمة وتحضير الأكل وفي بعض الأحيان نسج فراش أو برنوس.. كلها في فترة الحمل لا يضرّها شيء بحكمة الله عكس ما نراه اليوم من نهي حتى عن صعود الدرج نحو السقف ..

بعد أشهر من أكل "الڤيز" و "النبڤ" و "سفّ" تراب الوادي المحاذي للخيمة يقترب موعد الولادة، وقبل ذلك :

" الڤيز " هو عشبة حلوة المذاق، ورقة خضراء طويلة ورقيقة.

" النبڤ " هي شبه فاكهة تنبت في شجرة مسننة الوحدة يقال لها السدرة..

يقترب موعد الولادة تدريجيا، ولا همّ للعائلة بشيء، فلا سرير للصبي ولا حفاظات ولا حليب اصطناعي ولا لباس، يحضر فقط خيط القماط وبعض الأقمشة تحصل عليها الأم من تمزيق بعض الثياب البالية، الرضاعة من المصدر الطبيعي، والباقي كله يدوي الصنع ..

العقيقة عند أهل الريف أشبه بكثير بالفرض في الحكم الشرعي، فلا يمكن البتة أن يولد المولود دون عقيقته، وفيها بعض الأقاويل للتخليد. في ليلة شتوية باردة، تحت صفير الرياح وصقيع قاس، تدبّ حركة دؤوب داخل جهة الحريم، التوقيت الآن فجرا، ويقال على لسانهم "الجليد يحلب" ولا جليد في الليلة الظلماء إن لم يوشك فجرها على البزوغ ..

المتعارف عليه هنا في هذا الركن الغامض من العالم أن أهل البدو ليسوا بحاجة إلى طبيب توليد ولا قابلة، كل ذلك تقوم به "الحاجة" مثلما يطلق عليها عموما؛ فبإحضار بعض القماش القطني وبعض الحشائش الطبيعية كالحلبة والعرعار وغيرها تتم عملية التوليد طبيعيا، ويقال على تعبيرهم " قطعت ليها السرّة" وهي كلها كلمات لها صلة وطيدة بالعلوم المتطورة ضمنيا، فالسرّة تعكس الحبل الذي رسمناه مرارا وتكرارا على سبورات المدارس وغيرها كثير من الإسقاطات التي لا يمكن سردها في موضع مثل موضعنا.. أخلاقيا طبعا وليس كتمانا للتراث ولا استحياء به أو منه..

حين يصرخ الوليد للوهلة الأولى، يعرف الأب والجد تلقائيا تمام العملية بنجاح، فهي المنبّه الوحيد الذي يحصلون عليه تلكم الليلة، وحتى خلال عملية التوليد لم يكن لديهم أدنى إشارة ولا ضجيج مثل ما هو شائع مؤخرا ..

يطلع يوم جديد على العائلة، ومرحلة النفاس هو ذا يومها الأول.. عند " الخالفة " صوت لو ركزت معه مطولا ستجده مزعج نوعا ما .. هو صوت " الرحى " وهي تهضم حبات القمح " المقلي " لينتج ما يعرف عندهم بـ " التمقتّة "، لتقريب المفاهيم لغير الجنوبيين والصحراويين والبدو من أهل المدن الكبرى سأقول " زريرة " هي التمقتّة التي أتكلم عنها، وهي طحين رقيق جدا لدرجة النعومة يضاف إليه " دهان العرب " عكس المدن والحضر، فهم يستعملون العسل بدل الدهان..

الخبر السعيد يتمّ تداوله مشافهة، فالراوية – الراوية تُطلق على من يجلبون الماء باستعمال الشمبر - والراعي والأب يوم السوق الأسبوعي ومثل ذلك عند أهل الأم حديثة الولادة هي طرق إشاعة الخبر المتعارف عليها، لتبدأ الزيارات والتبريكات صباح مساء، ويعود " فطور التّسعة" و "العشوية" بمعنى العصرونية مثلما نقلت لكم أخبارها في حديثي عن حفل الزفاف .. نفس الأطباق والمراحل: فقط إضافة التمقتّة إلى الرزنامة..

العقيقة في الليلة الثامنة من الولادة، ولا شكّ أنّ فرحة أهل الريف بالمولود كانت بنية صافية سليمة لا فرق فيها بين الأنثى والذكر، فـ "الرخلة الصفرة" قد تنوب عن "العلوش" في حالات محدّدة تنحصر كلها في كساد التجارة أو وضع العائلة ماديا، وتقام العزمة بدل تقسيم

اللحم، وينشرح صدر الكل بدل التذمر والتنمر من الضيوف، هي ذهنيات اضمحلّت واضمحلّ معها اليمن والبركة، وهي شخصيات لم تكن على دراية بالأحكام وأدلتها لكنهم خير من طبّقها حقّ الاقتداء والاتّباع، فطوبى لمن اغترف غرفة الحب والبساطة وسموّ الذات من بحر الريف اللج، في زمن أمسى الرضيع يستبدل برضيع داخل أقسام التوليد المتحضرة.

فصل "القماط: طريقته، أدواته وما يقال من كلام فيه

القماط في الأيام الأولى ممنوع على الجميع سوى الجدّة، فهي حريصة على العناية بحفيدها خاصة إذا كان الحفيد الأول، ف "العجوج" يتراءى لها أنها أعلم منهم بالصبي، وكثيرا ما تسمع منها عبارة "عرش فات علي يدي" بمعنى خبرة واسعة في المجال، وهي حقيقة نرجسية النساء أو بالأحرى نرجسية " العجايز " ..

تمدّ العجوز (مصطلح العجوز يطلق على أم الزوج، مثلما هناك بعض الألقاب كـ: الضرّة وهي الزوجة الثانية، الكنّة وهي زوجة الابن، الربيب: وهو الولد من أب أو أم أخرى، السلف: أخ الزوج، الطفلة: أخت الزوج وغيرها)، قلت: تمدّ العجوز رجليها متلازمتين وتغطيهما بقماش رطب الملمس غليظ السمك، تضع الخيط بعدها على العرض ثم قماش القماط، يوضع الوليد على ظهره ويداوى من بعض المناطق التي تتمكن منها البكتيريا وينتج عنها بعض الحروق السطحية، ثم أنه كانت هناك " التسرويلة " وهي قطعة بلاستيكية تستعمل عدة مرات عكس ما هو عليه الحال الآن، ثم تلبسه بعض اللباس صغير المقاس جدا مثل " تريكو الجلد " وسروال متوارث منذ قرون من جيل إلى جيل، ثم يلف القماط من جهة اليمين أولا ويوضع تحت اليد اليسرى ثم الجهة اليسرى من القماط

مثل ذلك، ثم من الأسفل إلى الأعلى ليلفّ الخيط بإحكام على القماط من الأعلى إلى الأسفل، كي تكون الخاتمة ب " سرفة " وهي نوع من أنواع إحكام حزم الخيط، صعبة الفتح تلقائيا، سهلة لمن يعرفون طريقة تشكيلها، بعد ذلك يحمل الوليد من رجليه ورأسه إلى الأرض ويرفع وينزل سبع مرات تقول فيها العجوز بعض الأقاويل في شكل أنشودة، ثم يُعطى الطفل لأمه لترضعه ويخلد للنوم..

الرضاعة طبيعية المصدر، وفي هذا الشأن لا يمكن القول أن أجدادنا هم الأسبق، بل حتى القرآن الكريم قد نظّم شروط الرضاعة وحيثياتها لما لها من انعكاسات على المجتمع والأنساب خاصة، فقد سمعنا كثيرا عن أزواج اكتشفوا أخوّتهم من الرضاعة بعد إنجابهم الأولاد، وأشخاص تراجعوا عن الخطوبة و/أو فسخوا عقود زواجهم بسبب اكتشافهم الأخوة من الرضاعة، إذ أنه على عهد أهل النوايا الصافية، كانت الرضاعة بمحلّ معروف، فلو كانت مرضعة مثلا مشغولة في عرس أو مأتم، تعطي رضيعها لمرضعة أخرى " هاكي نكعيه ورقديه نتي خيتي "، ومن كثرة هذه الممارسات صار النسيان غالبا وسط النسوة حتى تتذكر أخريات ما حدث ليتأكد الجميع من الأخوة من الرضاع..

بعد شهرين أو ثلاث على الأكثر، يبدأ الوليد باستقبال الأكل من نوع " العيار الثقيل "، كعصيدة الخضر والمطلوع المغمس في الحليب ودهان العرب ومرات يشرب اللبن بدل حليب أمه، حتى إذا أَلِف ذلك، تأمر العجوز بفطامه نهائيا عن أمه..

يتوجه الشيخ " وهو جدّ المولود" إلى "طالب" والطالب هو الحافظ الذي يمارس الرقية (الكتبة) وهي أول أنماط الرقية قبل انتشار الرقية بالضرب والرقية بالتقبيل والتجريح والسفاهة والدناءة، فيكتب له الطالب في "غرفية" على جهة، ومن جهة أخرى على حبات حلويات كانت حلويات " بيمو" رائجة حينها لهذا الغرض، ليُطعم الرضيع ما أوتي من حلويات ويستبدل حليب أمه بحليب الماعز لأنه الأقرب إلى حليب الأم قبل اكتشاف ذلك علميا، وتسمى المعزة باسم الوليد: معزة خالد مثلا، لتستريح الوالدة من تكاليف الرضاعة وتوجّه من طرف العجوز إلى الحطب و" التبركيش " و " ڤبيض الجديان" وكنس البيت وغيرها من التكاليف الروتينية ..

فصل الخيل

لكلّ خيمة على نحو الغالبية الساحقة حصان، يستعمل عادة للزينة والنرجسية، الفنتازيا أولى مهامه، والفنتازيا هي لعب الخيول مع بعضها لعبة تصطفّ فيها الخيول أفقيا على صف واحد، المرة الأولى يقال " تغضب وتدنّي " والثانية تختتم بدويّ البارود، وهي على الأرجح محاكاة لثورة شعبية أي حرب على النحو الكلاسيكي القديم، ولكن قبل ذلك، ففي عالم الخيول كلام لا يمكن حصره في جزء من رواية، كلا؛ فالموضوع أصلا سيتعرّض للعديد من الانتقادات اللاذعة بحكم إهماله الكثير من الحقائق والتفاصيل، ولكنّني سأحاول على الأقل كمدخل شرح بعضا منها.

عملية شراء "المُهْرِ" عمليّة في غاية الصعوبة حيث أنها تقتضي شورى واسعة بين الشاري وأهلة ممن هم على دراية بالسوق كما يصطلحون عليه، وأول ما يُراعى عند شراء المهر هو قامته وشموخه، بمعنى هيئته وانتصاب قامته، فإن سُرّت به الأعين ينتقل البدوي ومن معه إلى تفاصيل " النخلة ".

النخلة ليست مصدر التمر في هذا السياق.. لا؛ بل المقصود بالنخلة هاهنا هو علامة مميّزة على جلد الحصان تتشكل من التفاف الشعر حول نقطة واحدة بشكل دائري كالحلزون مثلا، في النخلة دلالات وإشارات تساعد الناظر على اتّخاذ قرار الشراء من عدمه على النحو التالي:

-1 دلالات الخير في الحصان: إذا كانت النخلة في أحد المواضع التالية فالتعجيل في عملية الشراء مطلوب: بين العينين، في الرقبة ويقال بلسانهم "الدراسات "، أسفل الرقبة، ويقال بلسانهم " الزرادية "، في صدره يشار إليها بلسانهم بـ " الحزام "

-2 دلالات لا تبشر بالخير: نخلة في سرّة الحصان، نخلة يصطلح عليها " القارب " وهي نخلة تكون عند التقاء الرقبة بظهر الحصان من الأعلى، ونخلة أخرى يقال لها " جيّافة " وهي أسفل الرقبة أيضا قرب الحلق.

بعد عملية الشراء، يقوم الفارس بالعناية بالحصان، ففي مسألة العلف مثلا يقدّم له صباحا التبن، وفي الظهيرة تبن وماء، وفي المساء تبن وزرع يوضع في ما يصطلحون عليه ب " العمارة " فالخيل لا تأكل في ما سبق وقلت بالنسبة للغنم " المجور"، بل في العمارة بإسكان العين، وهي قماش مخاط يعلّق على رقبة الحصان ويتناول منه ما فيه، وفي فصل الربيع يتمّ استبدال التبن بمادة أخرى تدعى " الخرطال" ليسمن الحصان ويزيد في الهيئة والقامة، يقال بلسانهم " قارح "..

مراحل تعليم الحصان فنّ الفروسية والفانتازيا تكون لأول مرة بتعويده على اللجام، حيث يبقى في مربطه بلجامه حتى يألفه، لمدة أسبوع إلى عشرة أيام، ثمّ يكون فارسا عليه بلجامه دون سرج، يقال للحصان دون سرجه بلسانهم " ملط " بفتح الميم وإسكان الباقي، حيث يجوب به بعض الأمتار حتى يألف الحصان رفقته وامتطاءه، ثم بعد ذلك يكون الحصان كاملا بسرجه ولجامه وفارسه؛ حيث يتم تعويده على الهرولة والجري، ويقال بلسانه " يغضب ويدنّي"، إلى ذلك الحين تبقى عملية تعويده على صوت البارود من أصعب محطّات التعويد، ويقال بلسانهم مفردة تنوب عن مفردة التعويد، يقال: " طوّع الحصان " بمعنى ربّاه ودرّبه.

ليس هناك طبعا منظر أبهى من نظرة للحصان في مربطه، ويقولون هم " عز الخيل في مرابطها "، فالحصان حين يلهو في مربطه، يعطي أحلى وأرق المشاهد التي لن يحظى الجميع بالتمتّع بها ..

فصل سوق المواشي

بأخذ سوق ولاية البيّض نموذجا: يحدث بعض النّشاط يوم الأربعاء منذ الصباح، لا حديث غير التنظيم والتحضير لفجر الغد، حين تصبّ القطيع رؤوسها على " المجور " يقوم الأب وأبناؤه بتعيين الكباش والنعاج المعنيّة برحلة الغد، ولكلّ عشّة علامتها التجارية وطريقة التعيين خاصتها، فمنهم من يقوم بتلوين أعلى الرأس بين الأذنين، ومنهم من يرسم رمزا موحّدا على ظهر كل شاة من " الجليبة ، ومنهم من يقص بعض الصوف بشكل جليّ، ومنهم من يصبغ ذيل الشاة وغيرها من "التعلام ".

وكاجتهاد شخصي يحتمل الخطأ طبعا، فلفظ الجليبة اشتق من الفعل الفصيح جلب يجلب والقصد إلى جلب ماله إلى السوق، وبعد تعيين وتمييز القطيع المراد حمله إلى السوق يقوم بعضهم بعزله عن القطيع كاملا، ومنهم من يترك القطيع مجتمعا طوال اليوم، ولكنهم "يفرزوهم" بشكل أكيد قبل الخلود إلى النوم تحضيرا للصباح الباكر..

على ضوء " قَرْعَة الشكارة" وهي آلة تستعمل للإنارة بفعل غياب الكهرباء، يطلب الأب من ابنه إحضار " الزّعبولة " وهي مقلمة كبيرة بين المحفظة والحقيبة في الحجم، بها كراسة وقلم ومال، شاهدت بأم عيني مبالغ ضخمة داخل الزعبولة بين " القراير" بشكل يوحي بالأمن والثقة بين

أفراد الخيمة، والغرض من إحضار الزعبولة هو إجراء بعض العمليات الحسابية على النحو التالي: - مثال فقط -

العلف: 2 كلغ في الضحى، و 2 كلغ في العشيّ بمعنى 04 كلغ في اليوم الواحد ضرب سعر الكيس مقسوما على كتلته بمعنى:

كيس " الفرينة " يساوي مثلا 2500 دينارا.

كيس " النخالة " يساوي مثلا 1800 دينارا

المجموع 4300 دينارا مقسومة على 100 كلغ وزن الكيسين مثلا ستحصل على 43 دينارا وهو سعر الكيلوغرام الصافي الواحد.

43 دينارا ستضرب في عدد الأيام من تاريخ الشراء حتى تاريخ البيع، مثلا نقول 189 يوما.

43*189= 8127 دينارا

سعر الدواء "سبع مراض" وحقنة الإسهاب وغيرها نعطيها مثلا سعر 50 دينارا كل شهر، 189 يوما بلغة الأشهر تعادل 6 أشهر ومنه 50*6= 300 دينارا .

8127+300 +250 مصاريف النقل= 8677 دينارا وهو قيمة نفقات الموّال من تاريخ الشراء إلى تاريخ البيع المقرر غدا.

يوصي الأب مرافقيه بسعر البيع الأدنى والذي سيكون حتما 12000 فما فوق، وهو ما سيتمّ فعلا..

الساعة الثانية فجرا: يقوم الجميع استعدادا، فالنّساء يحضرن قهوة الصباح والرجال يخرجون إلى الخارج، يقوم السائق بتسخين الآلة الوقودية التي تدعى " جياكة JAK" ثم يوقفها داخل حفرة وضعت خصيصا لأجل الجليبة، من خلال تلك الحفرة تستوي الزريبة وعربة الشاحنة تماما لتسهيل عملية نقل الجليبة، ثم يتركون الشاحنة على حالها تدندن ويعودون إلى العشة لتناول الوجبة الباكرة، لا تسمع الآن شيئا سوى "طلع علينا النهار" و "ارموا عينكم" الأولى تعني تأخرنا كثيرا والثانية تعني خذوا حذركم وابقوا يقظين ريثما نعود.

قبل الانطلاق: هناك ابن سيعاني الأمرّين لأنه سيركب من الخلف رفقة القطيع للحراسة، ويركب الأب كالقائد رفقة السائق.. السائق غالبا هو الأخ الأكبر وهو صاحب اتخاذ القرار بخصوص المركبة وهو المسيطر عليها..

نظام السّوق بالغ التنظيم، فالدخول له أُطره، والخروج أيضا، تُتداول أموال طائلة داخل السوق الأسبوعي، يعرض الجميع " جليبته" ويبدأ " الشاري" بالسؤال: "شحال سمعت؟" بمعنى كم سعر الشاة لحدّ الآن، يجيب العارض حسب وضعه بكلّ صدق دون تضخيم السعر، وإن لم يسمع سعرا من مشتر سابق فإنه يجيب "مزال على باب ربي" بمعنى لم نسمع لحدّ اللحظة سعرا، العملية يُعبّر عنها بلسانهم ب "يساوم أو يسوم"، وتتمّ عملية الشراء بعد عملية تتم فيها وضع اليد على ظهر الشاة

وتحسّس اللحم الذي يغطي ظهرها، العملية تهدف إلى قياس سمنة الشاة من عدمها، يقال بلسانهم "يقصّ"، ويراعى أيضا قبل الشراء سنّ الشاة من خلال أسنانها، فهي إما: خروفة صغيرة، "ثنيّ" أو " شارف". عند الاتّفاق والرسوب في سعر توافقي، يدفع المشتري سعر المشتريات عادة بعد إخراج الجليبة خارج السوق، وبعد دخول المتطفّلين على السوق في يومياته، تقلّصت الثقة نوعا ما، فقد صار الدفع داخل السوق بقولهم : "البكي على راس الميّت" بمعنى الدفع الفوري، عملية الشراء لن تتمّ دون تبادل العبارة "الله يربّح" من المشتري والبائع على حدّ سواء، عند تمام العملية نهائيا، يتسوّق الأب بالسوق المحاذي لسوق الغنم وهو سوق به قماش وخضروفواكه وعتاد فلاحي ولباس تقليدي وغيرها، حيث يقتني بعض وصايا العجوز من "قضيان" وأحذية ولباس وحلويات للأطفال وغيرها، ثمّ العودة نحو " الأهل " لأخذ قسط من الراحة بعد يوم شاقّ للغاية.

فصل حسابهم للفصول والأيام

يعتمد أهل البدو في حياتهم اليوميّة على أشهُر خاصة بهم، فهم لا يجيدون الهجري ولا الميلادي من السنوات، وكلّ ما يعتمدون عليه في العدّ والحساب هو حركة القمر بزوغا واضمحلالا، فهم ينتهجون حسابا يتكوّن من ثمان وعشرين "منزلة" والمنزلة مثلما هو متداول الآن بالشهر، كلّ منزلة تحتوي ثلاثة عشر يوما وهي على التوالي:

تنبيه: قبل قراءة حسابهم وتقديرهم يرجى التفريق بين "المنزلة" وتقديرات السنة الفلاحية، فالنّزلة هي مثلما نعرف نحن "الشهر" وعددها ثمان وعشرون مثلما قلت أعلاه، أمّا تقديرهم للسّنة الفلاحيّة فهي مجرّد عناصر ورموز يعرفون بها الفصول وموعد الزّرع والجني والأمطار والحرّ وغيرها من تقلّبات المناخ.

-1 الصّرفة: وتبدأ يوم السّابع والعشرين أوت بالحساب الميلادي وعدد أيامها ثلاثة عشر، في هذه المنزلة بالضبط يوم الثلاثين أوت، يقولون في حسابهم في السنة الفلاحية: بداية الخريف، ثمّ يوم الثاني سبتمبر انتهاء أوسو من السنة الفلاحية، ثمّ يوم الثاني عشر سبتمبر يقولون من السنة **الفلاحية:** الاعتدال الخريفي..

-2 العواء: وتبدأ يوم التّاسع سبتمبر، وعدد أيامها ثلاثة عشر.

-3 السماك: ابتداء من الثاني والعشرين سبتمبر وأيامها ثلاثة عشر وفي هذه المنزلة وتحديدا يوم السابع والعشرين سبتمبر في حسابهم للسنة الفلاحية يقولون: استواء الليل والنهار.

-4 الفقر: ثلاثة عشر يوما ابتداء من الخامس أكتوبر.

-5 الزبانان: ثلاثة عشر يوما ابتداء من الثامن عشر أكتوبر.

-6 الإكليل: ثلاثة عشر يوما ابتداء الواحد والثلاثين أكتوبر.

-7 القلب: ثلاثة عشر يوما ابتداء من الثالث عشر نوفمبر.

-8 الشولة: ثلاثة عشر يوما ابتداء من السادس والعشرين نوفمبر، في هذه المنزلة، وبالضبط يوم التاسع والعشرين نوفمبر يقولون: دخول الشّتاء في حسابهم للسنة الفلاحية طبعا، ثم يوم الخامس والعشرين ديسمبر تكون الليالي البيض من السنة الفلاحية.

-9 النعايم: ثلاثة عشر يوما ابتداء التاسع ديسمبر.

-10 البلدة: ثلاثة عشر يوما ابتداء الثني والعشرين ديسمبر، في هذه المنزلة تنتهي الليالي البيض من السّنة الفلاحية، وبالتّحديد يوم الثالث عشر جانفي.

-11 الذابح: ثلاثة عشر يوما ابتداء من الرابع جانفي، وهو أوّل يوم من الليالي السود في السنة الفلاحية، والتي تنتهي حتّى سعد السعود وبالتحديد يوم الثاني فيفري.

-12 البولع: ثلاثة عشر يوما ابتداء من السابع عشر جانفي.

-13 سعد السعود: ثلاثة عشر يوما ابتداء من ثلاثين جانفي، في هذه المنزلة تنتهي الليالي السود وتدخل خلفها العزارة يوم الثالث فيفري.

-14 سعد الخبية: ثلاثة عشر يوما ابتداء من الثاني عشر فبراير ، وثاني يوم في هذه المنزلة هو إعلان نهاية العزارة، ثمّ يليه يوم أي الرابع عشر فبراير هو دخول قرّة العنز من السنة الفلاحية، ثمّ في نفس المنزلة وبالتحديد يوم 20 فيفري يقولون: نزول جمرة الهواء في السنة الفلاحية.

-15 الفرع المقدّم: ثلاثة عشر يوما ابتداء من الخامس والعشرين فبراير، يومين بعد دخول هذه المنزلة، في السنة الفلاحية أي يوم السابع والعشرين فيفري يقولون: نزول جمرة الماء، ويوم الثامن والعشرين فيفري يقولون: دخول الربيع، وفي يوم السادس مارس يقولون: نزول جمرة التراب.

-16 الفرع المؤخّر: ثلاثة عشر يوما ابتداء من العاشر مارس، ويقابل هذا اليوم الأوّل من منزلة الفرع المؤخر في السنة الفلاحية قولهم: دخول الحسوم والتي تنتهي يوم السابع عشر مارس، ليدخل بعدها يوم العشرين من مارس الاعتدال الربيعي.

-17 الرشا: ثلاثة عشر يوما ابتداء من الثالث والعشرين مارس.

-18 الشرطين: ثلاثة عشر يوما ابتداء من الخامس أفريل.

-19 البطين: ثلاثة عشريوما ابتداء من الثامن عشر أفريل.

-20 الثريا: ثلاثة عشريوما ابتداء من الفاتح ماي.

-21 الدبران: ثلاثة عشريوما ابتداء من الرابع عشر ماي.

-22 الهقعة: ثلاثة عشريوما ابتداء من السابع والعشرين ماي، في هذه المنزلة، وبالتّحديد يوم الثّلاثين مايو يقولون: دخول الصيف.

-23 الهنقة: ثلاثة عشريوما ابتداء من التاسع جوان وفي آخريوم من هذه المنزلة، وبالتحديد يوم الواحد والعشرين جوان يقولون: الرجوع الصيفي.

-24 الدراع: ثلاثة عشريوما ابتداء من الثاني والعشرين جوان.

-25 النثيرة: ثلاثة عشريوما ابتداء من الخامس جويلية، في هذه المنزلة، يوم الخامس العشرين جويلية يقولون: أوّل أوسو، يوم السابع جويلية أوّل أيام العنصرة، وهي بداية الحرّ الشديد.

-26 الطرفة: ثلاثة عشريوما ابتداء من الثامن عشر جويلية، يقولون أنّ الخامس والعشرين جويلية هي بداية "الصّمايم" وهي أقصى وأقسى أيام الحرّ في السنة كلّها.

-27 الجبهة: أربعة عشريوما ابتداء من الواحد والثلاثين جويلية.

-28 الـزَبـْرَة: ثلاثة عشريوما ابتداء من الرابع عشر أوت وتدور السنة كاملة على هذا النحو.

هو حسابهم وتقديرهم، وليسوا مخالفين لنصّ الآية الذي يصرّح حقيقة بعدد الشهور، بل لقلّة حيلة في علمهم واطّلاعهم، فهو حساب توارثوه أبًا عن جدّ منذ القدم.

الختام

ولا ختام في الموضوع، ولكنّ أردت أن أنوّه وأشكر ثمّ أذكّر فقط، فأما التنويه فالذي كتبته في هذه الصفحات هو تراكمات الواقع المعيش، لكثرة الاختلاط بكبار السنّ ومناقشتهم، لمشاهدتي في طفولتي خلال زيارتي للبدو كلّ نهاية أسبوع لخيام أعمامي، لحكايات "الجماعة" في كلّ وليمة كنت مدعوّا فيها، الشطر الجزيل لمساعديّ في محاولة ضبط المعلومات، العربي خديم وأحمد صالح خديم، والصديق الفارس: مراد بلغازي على تصويبهم وحرصهم على نشر معلومات أقرب للصواب، أنوّه أيضا بتقصيري الشديد في سرد الكثير الكثير من المعلومات التي جهلت بعضها وتفاديت الخوض في بعضها الآخر لعدم إلْمامي الكامل بتفاصيلها، فالرسالة قد افتتحت من متطفّل على التاريخ والأدب عموما يدعى عبدالله خديم، لأمرّر المشعل إلى المؤرّخين والباحثين في التراث ومن هم أولى من السبق مني، ولكنّني انتظرت وبحثت كثيرا عن مرجع يحكي ويحاكي حياة البدو فلم أجد غير كتاب الدكتور الراحل الشيخ عشراتي، الذي كتب حول عرش اولاد زياد على وجه التخصيص، رحمه الله وكتب له بكلّ حرف من حروفه مليون حسنة إلى عشرة أضعاف إلى مائة ضعف. أمّا التّذكير: فهو يخص الفاشلين المتشائمين وكثيرا ما هم. أذكّركم أنّني

فاشل مثلكم؛ بل أكثر منكم فشلا والله، ولكنني تنبّهت أنني حين ابتدأت سرد هذه الأفكار كنت أسردها من باب الدعابة لأُضحِك أصدقائي على مواقع التواصل الاجتماعي، ثمّ خطر ببالي البحث عن مراجع تسرد حياة البدو الرحّل الذين عايشتهم وعاصرتهم فلم أجد، ربّما لدرجة فشلي البالغة حتى في البحث العلمي، ولكنّني لحدّ الساعة أعتبره أوّل مرجع يسرد حياة قيد الأفول في انتظار صفعي من النقاد بعناوين أسدّ بها جوعي العلمي والثقافي.

المختصر من قولي: مهما كنت فاشلا فهناك حتما نقطة بداية، ومهما كنت جاهلا فهناك حتما طرق تعليم وتلقين، فاجعل يوما من أيام فشلك نقطة بداية وجرّب فشلك إن كان ناجحا أم فاشلا، الفكرة ممتعة حقا فقط حاول.. أو أقل لك ؟؟ جرّب فإن نجحت في فشلك فذاك الهدف، وإن فشلت فاسرد لنا قصة فشلك وتجربه ففي النهاية سيكون فشلك ناجحا..

دبي/ الإمارات العربية المتّحدة يوم: الثّاني والعشرين جانفي عشرون وألفان

عبدالله خديم